مع آرنولد توينبي

ترجمة محمد عبد الله الشفقي

تقديم المترجمة

فى بيت من بيوت المدينة الكبيرة ـ لندن ـ يعيش رجل يعشق الريف ويحن اليه ، الرجل طويل غير بدين ، منحنى الظهر ، والشعر الذى يتوج الرأس قد أصبح اليوم أبيض اللون . والوجه مستطيل وشاحب ، والحاجبان كثيفان والابتسامة مرسومة على الشفتين فى عذوبة .

فى الرابع عشر من شهر ابريل يكمل الرجل عامه الخامس بعد السبعين . فى هذا البيت الهادىء تعيش معه زوجه التى كانت تعمل مساعدة له فى يوم من الايام ، وكان اسمها فى ذلك الحين فيرونيكام . بولتر ، ثم اصبحت تدعى مسز توينبى منذ عام ١٩٤٦ .

كيف أصبح هذا الرجل ، واسمه آرنولد توينبى ، كيف أصبح مؤرخا ؟ ما الأحداث التى تقف وراء ذلك الكتاب الضخم المسمى « دراسة للتاريخ » ؟ لن نغالى اذا قلنا ان التاريخ يجرى فى دماء الأسرة التى انحدر منها آرنولد توينبى . كانت والدته مؤرخة ، ومن بين أولى الفتيات اللائى حصلن على درجات جامعية فى انجلترا . وفى عام ١٩٥٥ زاره أحد أساتذة جامعة هارفارد ، فوجد صورة هذه الأم المؤرخة على المكتب . وعنها قال الابن : ـ

«ولقد نشأت وأنا افترض اننى سأغدو بدورى مورخا بسببها . هاك صورتها . انها على مكتبى دائما ، تبدو جد شابة . لقد كانت فى أحد الفصول النسائية التى سبقت غيرها فى تلقى دراسات جامعية بجامعة كمبردج بانجلترا . وعندما كنت صغيرا ، وعندما كانت توسدنى فراشى ليلا ،

اعتادت أن تحكى لى تاريخ انجلترا فى حلقات ، الى أن انتهينا منه تماما خلال عام تقريبا » ٠

ولم تكن أمه هى المصدر الوحيد الذى رضع منه التاريخ كان هناك فرد آخر فى الأسرة يمخر عباب المحيطات بمركب ذى شراع ٠ وكان أن رسم لأرنولد خريطة للعالم أوضح فيها رأس الرجاء الصالح ، وكل محيطات العالم ٠

ولد آرنولد توينبى فى الرابع عشر من شهر ابريل عام ١٨٨٩ ، وكان ميلاده فى المدينة التى مازال يعيش فيهـــا ٠ وتلقى علومه فى ونشستر ، وكلية باليول بجامعة اكسفورد٠ وكانت دراساته من النوع الكلاســيكى المتمثل أساسـا فى اليونانية واللاتينية ٠ وبعد أن انتهى من دراساته ذهب الى اليونان لمدة عام ٠ وهناك ، استرعى نظره أمر آخر غير التاريخ القديم ٠ لقد عرف ــ لأول مرة ــ أن هناك شيئا هاما آخر يبلغ فى خطورته خطورة التاريخ القديم ٠ هــذا الشىء اسمه : المشاكل الدولية المعاصرة ٠

وعاد من اليونان وهو يحمل هذه التجربة فى ذهنه ٠ فأخذ يلقى محاضراته فى التاريخ القديم باكســفورد ، وفى الوقت نفسه شرع يكتب فى المشاكل الدولية المعاصرة ، وينشر مقالاته فى مجلات بريطانية جادة مثل مجلة نيشن Nation وأنجز توينبى أول كتابين له ، وظهر هذان الكتابان عام ١٩١٥ تحت عنوان « القومية والحرب » و «أوربا الجديدة» ٠

وفى ذلك العام نفسه عمل فى قسم المخابرات السياسية بوزارة الخارجية البريطانية ٠ وأسفر هذا عن اختيـــاره فى الوفد البريطانى فى مؤتمر السلام الذى انعقد بفرساى ٠

وفى عام ١٩١٩ انضم الى جامعة لندن كأستاذ للغـــات والآداب والتاريخ البيزنطى واليونانى الحديث ٠ وظل يشغل هذا المنصب حتى عام ١٩٢٥ ، فعين أستاذا باحثا فى التاريخ الدولى ٠ وكان قد أنفق عام ١٩٢١ بالخارج لتغطيـة تطورات الحرب اليونانية التركية لحساب صحيفة مانشستر «جارديان» واسفرت تجربته عن كتاب « المسألة الغربيـــة فى اليونان وتركيا »

عام ١٩٢٢ ! انه عام هام جدا بالنسبة لآرنولد توينبى وبالنسبة للمهتمين بشئون التاريخ وقصة المدنية • ان كتاب « المسألة الغربية فى اليونان وتركيا » لا يعد شيئا بالقياس الى شىء آخر وقع فى ذلك العام • لقد التقط توينبى ورقة بيضاء ، لكن اكثر دقة : التقط توينبى نصف ورقة بيضاء مهملة وخط فيها أولى نقاط السفر الخالد « دراسة للتاريخ » وظن وهو يكتب نقاطه أنه سينفق عامين فى الكتابة ثم يخرج للناس بكتاب • ولكن مضى العام الأول فى البحث والتنقيب والتدوين • كذلك مضى العام الثانى ، والثالث ، والرابع •• وبعد تسعة أعوام كاملة نشر توينبى الأجزاء الثلاثة الأولى • ثم مضت خمسة أعوام أخرى من العمل الشاق لاعداد الاجزاء الثلاثة التالية التى ظهرت عام ١٩٣٩ • وبلغ مجموع صفحات هذه الأجزاء الستة مجتمعة ٣٤٨٨ صفحة • ولم يقف ارتفاع الهرم عند هذا الحد ، فبعد مضى سبعة وعشرين عاما من ظهور الفكرة الاولى كان توينبى قد أنجز عشرة أجزاء •

ولكن ••• لماذا أخذ توينبى على عاتقه مهمة ضخمة كهذه ؟ لماذا لم يشرك آخرين معه ؟ لماذا لم تنجز هذا الكتاب لجنة ؟ أن آرنولد توينبى يمقت كلمة « لجنة » عند التعرض للتأليف • وفى هذا يقول — فى حديث مع كريستوفر رايت —:

« لاأعتقد أن هناك لجنة تستطيع أن تؤلف كتابا• ان هناك أشياء لاحصر لها مما تستطيع اللجنة انجازه • انها تستطيع أوه ! ، ربما تستطيع أن تحكم بلدا • ولكنى لا اعتقد أنها تستطيع تأليف كتاب • أعتقد أن الكتاب يجب أن يكون وليد عقل واحد » •

ولو قد أعدت «دراسة للتاريخ» لجنة من أساتذة التاريخ لجاءسردا عاديا ، مؤدبا لأحداث العالم كما هى مدونةفى الكتب السابقة واللاحقة • ولكن توينبى أراد أن يعبر فى هذا الكتاب عن وجهة نظر ، ورأى ، واتجاه — ومن ثم كان لابد أن يكتبه وحده ويتحمل مسئوليته • والحق انها كانت مسئولية جسيمة •

فلقد هاجم الكتاب كثيرون ، وقال المؤرخون عن بعض آرائه انها غير منطقية ، أو غير صحيحة ، أو غير واقعية •

وضربوا لذلك أمثلة تأكيده لدور الدين فى التاريخ ، فهو يعتبر التاريخ « رؤية للرب وهو يكشف عن نفسه فى الأحداث لأرواح تسعى اليه فى اخلاص » ـ معارضته للنزعة العسكرية والنزعة القومية ـ اعتراضه القائل بأن للمجتمع شكلا ، وهو الافتراض القائم على اكتشافه لملامح عدة تتكرر فى جميع المجتمعات ٠

ولكن ، كان هناك من يدافع عن هذه الاتجاهات الواضحة فى منهج توينبى ، ومنهم ريتشارد تشيز الذى قال فى مقاله المنشور بمجلة « أميريكان سكولار » :

« ان الكبار والمؤثرين من واضعى النظريات ـ من أمثال ماركس وفرويد وتوينبى ـ لايحققون أثرهم القوى بفضل التكامل المنطقى لنظرياتهم ، وانما لانهم يملئون فراغا يحس به الناس لاشعوريا ، يملئونه بقوة عاطفتهم الأخلاقية ، والحاحها » ٠

وكتب عنه جميز فيبلمان مقالا مطولا فى « شهرية تيين هشيا » التى ينشرها فى شنغهاى معهد صن يات صن للنهوض بالثقافة والتعليم ٠ وفى المقال قارنه بمؤلف شبنجلر «انهيار الغرب The Decline of the West » غيرانه أشار الى أن توينبى يتفوق على شبنجلر من حيث أن الأول ذو نظرة رحبة غير ضيقة ، فتوينبى لم يعتبر انجلترا مركز العالم ، أما شبنجلر فألف كتابه من وجهة نظر ألمانية محضة ٠ هذا ، ويتناول توينبى فى كتابه المجتمعات أو المدنيات الرئيسية الست الموجودة فى عالم اليوم ، وهى المجتمعات أو المدنيات الغربية ، والمسيحية الأورثوذكسية ، والاسلامية ، والهندوكية ومدنية الشرق الأقصى ٠ ولقد بلغ من استيعابه للموضوع الذى يتحدث عنه ـ وهو موضوع ذو أبعاد زمانية ومكانية معقدة ـ أن قال عنه فيبلمان : « ان توينبى يألف كل مكان ، سواء كان القرى الصغيرة فى موطن أى فرد ، أو الاركان النائية للأرض فى أى عصر ٠٠ وهو يحول كل قصة ـ بلمسة منه ـ الى شىء مشوق » ٠ وقارن البعض كتابه بمؤلف جيبون الشهير « تدهور الامبراطورية الرومانية وسقوطها ٠

«The Decline and Fall of the Roman Empire.»

غير أن المدنيات والمجتمعات الموجودة فى عالم اليــوم لاتشكل كل الأبعاد التى تناولها فى « دراسة للتاريخ » • لقد بلغ مجموعها ستا وعشرين مدنية عاشت خلال ستة آلاف عام من تاريخنا • تأمل توينبى هذه القرون ، ثم خرج بآراء فى تاريخ العالم مثيرة جدا • لقد انتهى به البحث الى أن جميع المدنيات تنتهج نمطا واحدا ، وأن نمو مجتمع أو تدهوره هو نتيجة التحدى الذى يواجهه هذا المجتمع ونوع الاستجابة التى يقدم عليها وهو يرد على هذا التحدى • وقد أطلق على هذه العملية اصطلاح «challenge and response»

ويضرب لذلك مثالا : —

فى يوم من الايام كانت صحارى افريقية الشماليــة خصبة بصورة رائعــة ، وكانت تحتضن جمعــا غفيرا من الصيادين • وبمرور الوقت جفت هذه الســهول ، وهربت الحيوانات ، وواجه الصيادون تحديا كبيرا ، جاء هذا التحدى فى صورة السؤال : كيف يعيشون ؟

ولم يكن بعض الصيادين بقادرين على مواجهة هــذا التحدى • لم يكن بمقدورهم أن يغيروا أسلوب عيشهم • لقد أصروا على أن يظلوا صيادين ، فمات فريق منهم وعاش فريق آخر على الكفاف — فى صورة متوحشين متأخرين •

غير أن فريقا آخر استجاب للتحدى بأن وقف فى وجهه وواجهه : لقد شرع يصوغ حياته من جديد • هاجر هــذا الفــريق الى وادى النيل ، وترك الصــيد ، وشرع يجتث الاحراش ويجفف المستنقعات وينشىء المزارع الجميــلة • وكانت النتيجة أن ازدهروا وخلقوا تلك المدنيــــة المصرية الرائعة التى عاشت زهاء أربعة آلاف عام •

ويقول توينبى : ان التحدى الذى يضــطر المجتمع الى مواجهته قد يتخذ أشكالا عدة ، والنجاح فى مواجهة تحد معين يفضى دائما الى تحد من نوع آخر • مثال هذا أن اليونانيين اضطروا بادىء الأمر الى مواجهة تحدى البيئة ، كانت أرضهم الفقيرة غاصة بالسكان • وواجهوا هذا التحدى بأن أنشئوا مستعمرات فيما وراء البحار • وسرعان ما أسفر هذا عن تحد آخر ، تحد سياسى : كيف تتعامل أثينا مع البلدان الخاضعة

لها وتتعامل مع اسبرطة ؟ وفشل الأثينيون فى مواجهة هذا التحدى ، وبهذا انهارت المدنية الهيلينية الرائعة • ووجـد توينبى أن الاستجابة الناجحة لتحد ما لاتؤدى الى نجاح ثان، ذلك أن الشعب الظافر قد يحس بالرضا والقناعة الضارة •

ومن القضايا الأخرى الهامة التى عرض لها توينبى فى كتابه : «دراسة للتاريخ» ان معيار النمو ليس فى النجـاح العسـكرى أو السياسى أو العلمى ، وانمـا فى القـدرة على الاستجابة الملائمة لسلسلة من التحدى الاقل مادية • ويرى توينبى أن خلاص المدنية الغربية لن يأتى الا بمولد الـروح المسيحية من جديد •

ـ ان منبع الحركة فى مدنية معينة مرجعه الفرد الخلاق ، أو أقليات صغيرة من الأفراد •

ـ ان التدهور الذى يؤدى الى الانهيار ، أو يوقف النمو أو يخلق دولة عالمية استبدادية ينجم دائما عن فشل الأقلية فهذه الأقلية قد تصبح آلية فى تفكيرها ، أو متحمسة بصورة استبدادية ، وهى تفضى فى النهاية الى انشقاق اجتماعى •

وعندما ظهرت أولى أجزاء «دراسة للتاريخ» لأول مرة اسـترعت نظر الدوائر الاكاديمية وحدها • غير أن سمرفيل نشر عام١٩٤٦موجزا للأجزاء الستة الاولى ، وذلك فى مجلد واحد • وبالرغم من دسامة المادة التى احتواها الموجز ، فانه بيع على نطاق واسع فى الولايات المتحدة وبريطانيا • واليوم تعـرض المكتبات موجزا فى جزأين بعـد أن ظهـرت الأجزاء الباقية لكتاب توينبى •

وقد بلغ من سعة أفقه ورحابة صـــدره أنه اعترف بوجود اخطاء فيما كتب فى هذه المجلدات كما وجد أنه حين يفكر فى مسألة بعد مضى وقت عليها فانه قد يرى فيها رأيا آخر ، على ضوء مايستجد من أحداث ومعارف • وهذا جعله يقول عام ١٩٥٥ : « ••• وهناك ••• كتابى « دراســة للتاريخ» ان ازدياد الاهتمام العام بنظرته العريضة الى الشئون البشرية قد أثار مناقشة ونقدا كبيرين ، وآمل أن تتضاعف

المناقشة ويتضاعف النقد · وسيدفعنى هذا الى اعادة النظر فى أفكارى · ويحتمل أن يظهر هذا فى شكل كتاب جديد » · وعندما اشتبك مع سفير اسرائيل فى ذلك النقاش الشهير الذى هاجم فيه الصهيونيين ودافع عن حقوق العرب ، قال : انه سيعيد النظر فى بعض أخطائه ويصححها فى كتاب جديد ·

وكان آرنولد توينبى عند وعده ، ففى النصف الثانى من عام ١٩٦١ ظهر أحدث جزء فى موسوعة « دراسة للتاريخ » واسمه « اعادة نظر Reconsiderations » وعندما زارنا آرنولد توينبى كانت تلك أول مرة يضع فيها المؤرخ الكبير قدمه فى أرض افريقية · لقد زار الولايات المتحدة الأمريكية وطار فوق غابة الآمازون ، وهبط فى بورما ، وركب حمارا جاس به خلال وديان ايران الخفية · بل لقد استغرقت احدى رحلاته سبعة عشر شهرا كاملا · وأكثر من هذا أنه اقترب فى آخر رحلة طويلة له من الأرض الافريقية ـ وذلك عندما زار قطاع غزة · ولكن كاتب التاريخ زارنا وشهد لأول مرة قطعة من التاريخ الغابر الأصيل ، ووقف لأول مرة أمام الأهرام وخوفو ، وهو الذى يعرف عنهما أكثر مما يعرفه كثيرون منا ·

ولا يزال مؤرخنا يعيش فى المدينة الكبيرة التى رأى فيها النور « لندن » ولكنه يحن الى الريف ، ويحب الفلاحين وعندما سأله مراسل آخر ساعة عما يريد أن يراه فى زيارته الأولى لنا أشار الى الفلاحين قائلا : أريد أن أشاهد مافعله جمال عبد الناصر للفلاحين ·

ان وراء حنين آرنولد توينبى الى الريف وحبه للفلاحين قصة ، وفلسفة ·

فى الرحلة الطويلة التى استغرقت سبعة عشر شهرا زار آرنولد توينبى عواصم كثيرة فأحس بالضيق · ان عواصم العالم تتشابه وتتخذ طابعا موحدا شيئا فشيئا ـ من الأفضل أن أتركه هو يتكلم :

أما بالنسبة لعواصم العالم فانها ، كلها ، تزداد ضخامة وتشابها ، ومغناطيسية · انها تجذبك الى بيتها ، بيت العنكبوت (وتتآمر معها جميع وسائل النقل) ، وما أن

تقتنصك حتى ترفض اخلاء سبيلك • انهـــا لاتستطيع أن تتصور أنك تريد أن تهرب منهـــا حقا الى الريف • ولـكن الريف ، حتى فى يومنا هذا ، مازال هو العالم الحقيقى • ان العاصمة لاتمثل البلد فى قليل أو كثير • لقـــد ولدت فى لندن ، ولقد عشت فى لندن طوال حياتى • ولكنى اذا أردت ان أعد دراسة جادة عن موطنى فسأهرب من لندن وأذيب نفسى فى هدرزفيلد وورينجتون • ان عجز العاصمة عن تمثيل وطنها لأحد عيوبها النوعية ، غير أن هذا العجز يصـــل الى الذروة فى البلدان ـ وهى تمثل الغالبية ـ التى تمر اليوم بمرحلة التحضر • ذلك لأن التحضر يبدأ فى المدن ، وهـو يشكل حياة الحضر وفقا للأنماط الغربية ، وهكذا نجد الهوة بين العاصمة والريف ـ فى أمريكا اللاتينيـــة • والبلدان الآسيوية ـ هائلة جدا ، كما أنها آخذة فى الاتساع المنتظم مثال هذا أنك تشعر ، وأنت تدخل طهران ، وكأنك قد خلفت وراءك ايران ـ التى تعتبر طهران عاصمتهـــا الرسمية •• واذا كان هدف المسافر هو رؤية عواصم العالم ذات الطابع الموحد فأحرى به ان يجنب نفسه عناء حزم حقيبته وأينمـا كان المرء فلابد من أن يصطدم بهذا النتاج الذى صنعه عصرنا الحديث •

لقد ضاع الكثير ـ الكثير جدا ـ من شهورى الثمينـة السبعة عشر فى الذبول داخل العواصم • وضاع الكثير منها فى الاندفاع داخل الطائرات • غير أننى لم أخسر تماما تلك المعركة التى خضتها مع هذين العدوين اللذين يترصـــدان المســـافر : العاصمة والطائرة • لقد مررت فوق ذؤابات أشجار غابة الأمازون مستقلا طائرة برمائية ، وارتقيت أحد وديان ايران الخفية ممتطيا ظهر حمار ، وتسللت فى طريق سايك عند بترا ، سيرا على الأقدام • ان هـــذه اللمحات للعالم الحقيقى شذرات لاتقدر بثمن » •

انها تحية لفلاحنا المصرى ، ولكل فلاح فى رحاب الكرة الأرضية الفسيحة • ان هذا الرجل الذى يؤرخ المدنيـــات يبحث عن الجوهر والمنبع ، ويسعى وراء القوى الحقيقية التى تشكل الوطن ، فى أية بقعة كان هذا الوطن •

وكان توينبى يرى أن التاريخ تجميع لتجـارب الأمس

للاستفادة منها اليوم • بهذه الطريقة يســـتطيع الحاضر أن يستفيد من الماضى • ولكن كيف يستفيد الماضى من الحاضر؟ كيف نستغل الحاضر فى تعميق فكرتنا عن أناس عاشوا فى الماضى ، ونريد أن نعرف عنهم المزيد ؟ •

يسلم توينبى بأنه لم يكن بمستطيع تأليف موسوعة «دراسة للتاريخ» لولا دراسته للمسائل المعاصرة ــ مع أن هذه الموسوعة تتناول الماضى فقط • وهو يفسر هــذا اللغز بقوله :

« ••• ان العصر الوحيد الذى تضع فيه يدك على أناس أحياء هو عصرك أنت ، عندما تكون حيا • فاذا استطعت أن تضع يدك عليهم وهم أحياء ودرستهم فى هذه الحياة ــ حسن ، ربما استطعت اذن أن تحيى الذين عاشوا عام ١٠٠٠ أو ٢٠٠٠ قبل الميلاد • ولكنك اذا عجزت عن دراسة الأحياء ، ودراسة طبيعتهم ، عجزت من ثم عن دراســة الجنس البشرى فى أى عصر كان » •

واذا كان موضوع كتابه الشهير هو المدنيات التى ظهرت فى عالمنا فلا بد من كلمة هنا عن مفهوم المدنية عند توينبى • تعرض توينبى لهــذا المفهوم فى مقال لم ينشر بموسوعته ، واسم المقال «لقاءات بين المدنيات» • يقول توينبى :

ماذا تعنى بكلمة مدنية ؟

واضح أننا نعنى بها شيئا ، ذلك لأننا حتى قبل أن نحاول تحديد مقصودنا نجد أن تصنيف المجتمعات الانسانية ــ المدنية الغربية ، الاسلامية ، مدنيـــــة الشرق الأقصى ، الهندوكية وهلم جرا ــ يبدو شيئا معقولا • ان هذه الاسماء ترسم فى أذهاننا صورا محددة للدين ، والعمارة ، والتصوير والسلوك ، والعادات ••• واعتقد أننى أعرف ما الذى أعنيه بكلمة مدنية : اننى متيقن على الأقل من أنى أعرف كيف وصلت الى رأيى الخاص فيها •

اننى أقصد بالمدنية أصغر وحدة للدراسة التاريخيـــة يصل اليها المرء حين يحاول فهم تاريخ بلده : لتكن الولايات المتحدة الأمريكية أو المملكة المتحدة • ولو حاولت فهم تاريخ

الولايات المتحدة فى حد ذاته لبدا لك غير مفهوم : لن تستطيع أن تفهم الدور الذى لعبه الحكم الفدرالى ، والحكم النيابى ، والديمقراطية ، والتصنيع ، والزواج بواحـــــدة فقـــط ، والمسيحية ، لن تفهم الدور الذى لعبته هذه الأشياء فى الحياة الامريكية مالم تتطلع الى ماوراء حدود الولايات المتحدة ، الى أوربا الغربية والى الأقطار الأخرى التى أنشأها الأوربيـــون الغربيون فيما وراء البحار ، وما لم تذهب الى ما وراء نشأتها المحلية ، الى تاريخ أوربا الغربية فى القرون الغابرة ، قبل أن يعبر كولومبوس أو كابوت المحيط • ولكنك اذ تريد فهم التاريخ الأمريكى والأنظمة الامريكية لأغراض عملية لاتحتاج الى تخطى أوربا الغربية والتطلع الى أوربا الشرقية أو العالم الاسلامى ، ولست بحاجة الى الذهاب الى ماوراء نشأة مدنيتنا فى أوربا الغربية ، الى تدهور المدنية الاغريقية الرومانيـــة وسقوطها • ان هذه الحدود الزمانية والمكانية تعطينا وحدة مفهومة للحياة الاجتماعية ، وحدة تعتبر الولايات المتحدة أو بريطانيا العظمى أو فرنسا أو هولندا جزءا منهـــا : اسمها المسيحية الغربية ، المدنية الغربية ، المجتمع الغربى ، العـــالم الغربى • وبالمثل ، اذا بدأت باليونان أو الصرب أو روســيا وحاولت فهم تاريخها فانك تصل الى مسيحية أورثوذكسية أو عالم بيزنطى • واذا بدأت بمراكش أو أفغانستان وحاولت فهم تاريخهما ، فانك تصل الى عالم مسلم • ولنبدأ بالبنغال أو ميسور أو راجبوتانا فستجد عالما هنـــــدوكيا • وابدأ بالصين أو اليابان ، وستجد عالم الشرق الأقصى •

وبالرغم من أن الدولة التى يتصـــادف أن نكون من رعاياها تطالب بولائنا بصورة استبدادية ملموسة ، وبخاصة فى العصر الحديث ، الا أن المدنية التى نحظى بعضويتها تؤثر فى حياتنا أكثر مما تؤثر الدولة • وفى أغلب مراحل التاريخ نجد أن هذه المدنية التى نحن أعضاء فيها تحتضن مواطنى دول أخرى الى جانبنا • ان هذه المدنية أقدم من دولتنا •

تبقى أشياء مشرقة قالها أرنولد توينبى عنا ، أشياء أخرى بالاضافة الى دفاعه عن عرب فلســطين أمام ســفير اسرائيل • ان توينبى فى مقامه «لقاءات بين المدنيات »يتكهن لنا ، وللقارة الآسيوية ، وأمريكا اللاتينية ، بدور كبير ضخم

فى المستقبل ــ وبهذا الدور سنؤثر على الغرب ونجعله يعتنق بعض اتجاهاتنا ويطبقها فى حياته ٠

يرى توينبى أن المدنية الغربية تؤثر فى القرن الحالى على المدنيات الأخرى وتطبعها بطابعها ، ولكنه يؤمن بأن الدورات التاريخية أثبتت دائما أن الطرف الخاضع للتأثير يظل ينمو ويتطور الى أن يحين الوقت الذى يقوم هو فيه بدور المؤثر ، وينتقم من الطرف الآخر ، وينعكس الميزان ٠

ويضرب لذلك مثالا من الماضى٠كان من نتيجة فتوحات الاسكندر الاكبر والرومان أن أرسلت المدنية الاغريقية الرومانية أشعتها عبر معظم أجزاء العالم القديم ٠ وتغلغلت هذه الأشعة الى الهند والى الجزر البريطانية ، بل وصلت الى الصين ودول اسكندناوا ٠ ومضت الأيام ، واذا بهجوم سلمى مضاد يوجه ضد هذا العالم الاغريقى الرومانى ٠ انه هجوم سلمى روحى لم يضرب ويغزو المقاطعات وانما القلوب والعقول ٠ وتم هذا على يد المبشرين بالديانات الجديدة التى ظهرت فى العوالم الاخرى الخاضعة لتأثير الاغريق والرومان ويقول توينبى ان الديانات الكبرى الأربع : المسيحية والاسلام والهندوكية والماهايانا (شكل من البوذية فى الشرق الاقصى) ظهرت كرد فعل للتغلغل الاغريقى الرومانى الحضارى ٠

ويجعله هذا يتكهن بمصير المدنية الغربية فى المستقبل ٠

« وفى عام ٣٠٤٧ ميلادية قد تكون مدنيتنا الغربية كما عرفناها وعرفها أسلافنا الغربيون فى الألف ومائتى العام أو ثلثمائة العام الاخيرة منذ خروجها من العصور المظلمة ، قد تكون تحولت الى صورة غير معهودة تماما ، وذلك بفعل مؤثرات مضادة تشع من عوالم اجنبية نحاول نحن اليوم اخضاعها لمؤثراتنا. ستشع المؤثرات الجديدة من المسيحية والارثوذكسية ومن الاسلام ومن الهندوكية ، من الشرق الاقصى » ٠

ويضيف قائلا : ان مدنيات الهند والصين ــ وهى مدنيات خصبة ــ سترد على التحدى الغربى ، وانه يحتمل أن تحدث الهند والصين فى حياة الغرب مؤثرات عميقة ، بل ويتكهن

بدور كبير فى المستقبل للمكسيك ، وبيرو ، وبوليفيـــــا ، والاكوادور ، وكولومبيا ٠

هذه لمحات خاطفة حاولنا أن نعرض فيها لبعض جوانب هذه الشخصية الفذة التى امتازت بتفردها فى التفكير ، ذلك التفرد الذى جعل صاحبها يقوم بعبء كتاب ضخم وحده لأنه يعبر فيه عن وجهة نظره ٠

تحية للمؤرخ الكبير الذى استرعى الأنظار الى مشكلتنا فقال فى كتاب « من الشرق الى الغرب » ، متحدثا عن قطاع غزة :

« واذا كان تسعمائة ألف لاجىء فلسطينى قنبلة ، فان مائتى الألف الذين يذوون فى قطاع غزة هم فتيل هـــذه القنبلة المتفجر ٠ هنا يكمن الخطر الذى يتهدد أمن العالم ، والذى يتحدى أيضا ضميره ٠ ولا يمكن حل هذه المشـكلة البشرية الملحة دون تضحيات مؤلمة من جانب جميع الأطراف المعنية : اسرائيل ، والدول العربية ، واللاجئين انفسهم ٠ ومن واجب العالم أن يصر على التفاوض من أجل الوصول الى حل وأن يدفع بسخاء لكى يذلل عقباته ٠ واذا استعرضنا أمم العالم جميعا وجدنا أن العبء الأكبر من المسئولية يقع على عاتق بريطانيا العظمى والولايات المتحدة ٠ وفى هذه النقطة على الأقل لا نستطيع أن نكذب حجج العرب » ٠

محمد عبد الله الشفقى

الانسان .. والجيل المجرم *

لنفترض أن جيلنا لن يصفي الجنس البشرى ، ولنتصور أن أحفادنا بعد ثلاثة أو أربعة أجيال من الآن ، قد أقاموا معرضا باسم « الجيل المجرم » نعم ، مما لاشك فيه أنهم سيسموننا : الجيل المجرم ، ان هـذا المعرض الذى أتصوره الآن سيسخر منا ، وسيعبر به أحفادنا عن حنقهم المستمر .

وفى معرض المستقبل هذا يصطدم ناظرى بعلبة تضم ثلاثة معروضات من مطبوعات جيلنا ، أحد هذه المعروضات عبارة عن صحيفة مسائية تصدر فى لندن ولاتحوى شيئاسوى «مجرد دردشة». ثانى المعروضات عبارة عن كتاب يتحدث فيه أحد الخبراء الفنيين الأمريكيين عن الحرب الذرية ، وفيه يناقش المؤلف القضية التالية : هل ستبلغ خسائر أمريكا عند الضربة الاولى ١٦٠ مليونا أو ٦٠ مليونا فقط ؟ أما الكتاب الثالث الموجود فى هذه العلبة فمن تأليف لورد راسل وهو موضوع مقالى الحالى . وعندما تقع عيون رواد المعرض على ثالث المعروضات فان كآبة مشاعرهم ستخف قليلا على ما أعتقد . وقد يقولون مهما يكن الامر فان ذلك الجيـل المجرم كان أفضل نوعا من سودوم وعموره ، لقد أنجب رجلا واحدا نزيها على الاقل . هاكم رجلا من ذلك الجيل، رجلا اهتم أشد الاهتمام ببقاء النوع الانسانى ولم يهرب الى السلبية بحجة الشيخوخة .

والواقع أن اللحن الاساسى فى هذا الكتاب الذى ألفه لورد راسل هو ذلك الاهتمام ـ المخلص الحى ـ بالمحافظة على الجنس البشرى ، وهو عنيف فى انتقاده الشديد لشرور الانسان وغبائه (ولقد عهدنا راسـل عنيفا على الدوام) . وأى هدف يستحق سهامه أنسب من المسلك الحالى الذى تسلكه الدول النووية ؟ غير أن غضبه الهـائل لم يجعله يتسقط

---

* فى هـذا المقال يستعرض آرنولد توينبى الكتاب الذى نشرته سلسلة «بنجوين» للفيلسوف برتراند راسل . وقد ظهر الكتاب تحت عنوان « هل للانسان مستقبل ؟ Has Man A Future? » . أما مقال توينبى فظهر فى «أوبزرفر» الاحد عدد ٢٦ من نوفمبر ١٩٦١ .

هفوات البشر بحقد ، أو يبدى نحوهم مشاعر الكراهية • ذلك أنه يدرك جيدا أن الجنس البشرى لايزال يعيش طفولته ، وانه اذا سمح جيلنا ببقاء هذا الجنس البشرى فانه سيعيش ضعف الحياة التى عاشها الى الآن مئات المرات •

واذا كان لورد راسل يمقت الجرائم والحماقات التى ارتكبها الجنس البشرى فى الماضى والحاضر ، فان هذا لايجعله يتغاضى عن المكاسب الروحية والفكرية التى حققها أفضل من يمثلون النوع البشرى • وهو يرى فى هذه المكاسب تشوقا الى مستقبل الانسان ، وما يمكن أن يكون عليه هذا المستقبل • ولورد راسل متفائل بالنسبة للافتراض القائل بأن امام الانسان مستقبلا ، وربما كانت لفظة متفائل مغرقة فى السلبية ، ذلك أن لورد راسل يسهم بحماس كبير فى عظمة جنسنا وسعادته ، العظمة والسعادة اللتين قد تتحققا فى المستقبل • انه دائب الاهتمام بما قد يحدث بعد أن تنتهى حياة جيلنا بعضور طوال •

وينصب حنق راسل على الخطأ الكبير الذى ترتكبه الدول النووية الحالية ، حين لا تحترم القوة التى وضعها العلم فى أيديها ، وهى قوة لم يسبق لها مثيل ، وحتى اذا كان بمقدور الزعماء السياسيين — فى هذه الدول — أن يقنعوا اخوانهم المواطنين بارتكاب الانتحار الجماعى ، فمن المؤكد أنهم يناقضون طبيعة الاشياء ويخرجون على القانون ، استعدادا للاعمال التى سيذبحون فيها الاطفال وهم بين أذرع أمهاتهم ، وسينكرون نعمة الحياة على أطفال لم يولدوا بعد ، وجدير بالذكر أن عدد أفراد الاجيال القادمة أكبر بكثير من عدد الافراد الذين ظهروا حتى اليوم •

ولورد راسل لايسمح باستخدام علماء النواة مخلب قط • وهو يورد من الأدلة مايبين كيف أن نفرا من أكبر علماء النواة بادروا — منذ اللحظة التى ظهرت فيها أول قنبلة ذرية — فنبهوا الحكومات الى النتائج التى قد تتمخض عن الحرب النووية • وأهاب العلماء برجال السياسة أن يلغوا القنبلة الذرية ، وأن يؤكدوا هذا الالغاء بالغاء الحرب نفسها • واذا كانت هذه الالتماسات لم تجد الأذن الصاغية فليس هذا ذنب العلماء • فهؤلاء العلماء قلة فى العدد ، وهم ليسوا منظمين داخل جهاز يقدمون من خلاله على اجراء سياسى • ولورد راسل محق حين يلقى عبء المسئولية — فى النهاية — على عاتق مواطنى هذه الدول النووية • واذا كان كل ألمانى مسئول — الى حد ما — عما فعله هتلر ، فان كل مواطن فى الولايات المتحدة ، والمملكة المتحدة ، والاتحاد السوفييتى ، مسئول — الى حد ما — عن الخطر الراهن الذى ينذر الجنس البشرى بالفناء •

ومن بين الخدمات الجليلة التى أداها لورد راسل فى هذا الكتاب أنه جعلنا ندرك بجــلاء ذلك التناقض البين بين جســامة الاخطار التى تسببنا فيها ، وتفاهة المصالح القومية التى نتصارع من أجلها ـ مصالح ستفنى مع فناء كل شيء آخر ، وذلك اذا تمت تصفية الجنس البشرى . وهو يبحث عن الجذور النفسية لهذا الجنون ، فيجدها فى رعونتنا . اننا نفضل اجراء ينهى حياة البشر على استسلام لارادة عدونا .

ترى ، هل هذه الرغبة فى الحرب بأى ثمن سمة مركبة فى النفسية البشرية ؟ هنا نجد أن لورد راسل متفائل أيضا ، وليس من شك فى أنه محق فى هذا التفاؤل . انه يؤمن بأن رغبتنا فى القتال ترسبت من عادة اكتسبناها خلال عصــــور كان الجنس البشرى يقاتل فيها أقرانه من الوحوش كى يكتب له البقاء . واذا أصبح الجنس البشرى سيد هــذه الوحوش أخذ يشبع عادة القتال فى حرب يحارب فيها الاخ أخاه . انها عادة قديمة ، وشريرة . بيد أن من الممكن تغيير العادة اذا صمم المرء على بذل المجهود الاخلاقى المطلوب . وان جيلنا ليدرك أن علينــا ، فى عصر الذرة ، أن نشفى أنفسنا من عادة شن الحرب اذا أردنا ابقــاء الجنس البشرى . أما الشيء الغريب فينا ، الشيء الذى يسيء الينا أبلغ اساءة ، فهو اننا لا زلنا نسمح لأنفسنا بأن نفكر ونحس ونتصرف بالاســـلوب القديم نفسه ، نفعل هذا بعد انصرام ستة عشر عاما على القاء القنــابل الذرية على هيروشيما ونجازاكى .

ويقترح لورد راسل انشاء حكومة عالمية لها سلطة فعالة ، سلطة تجعل الحرب مستحيلة فى المستقبل بيد أن أى مشروع لدستور عالمى قد يبدو أكثر جمالا من الواقع ـ هذا اذا نجحنا فعلا فى انشاء حكومة عالمية بصورة من الصور . ذلك اننا جد متشبثين بالسيادة القومية ، لذا سنبذل أقل جهد فى هذا السبيل ، وسنبذل هذا الجهد المحدود بالتقسيط ، ولن نبذله الا فى آخر لحظة . ومع هذا فمن العسير تحقيق هذا القدر المتواضع .

وهنا نجد أن أثمن نقطة يعرضها لورد راسل قد تكون ذات طابع سلبى وهو يصر على أن من العبث اقتراح أية ترتيبات من شأنها تغيير ميزان القوى الحالى ، وعلى هذا الاساس وحده قد تتاح فرصة قبول أية مقترحات عن طريق الجانبين .

ومن أشق المهام ، فى هذا العالم ، أن تجعل الناس يهتمون بشيء على جانب كبير من الأهمية ، شيء يعرفونه لكنهم يفضلون نسيانه . واذا

كان هناك شيء يمكن أن يحرك الامم النووية فان كتيب راسل قد يكون هذا الشيء • والثمن الذى يدفعه القارىء فى شراء النسخة التى طبعتها بنجوين يمكن أن يتجمع بالامتناع عن شراء صحيفة مسائية لمدة أسبوع واحد •

ومن بين الثلاث أمم التى تملك النواة تتكلم اثنتان الانجليزية ، لذا يقتضى الامر وجود ترجمة روسية حتى تكتمل المهمة • فاذا أمكن شحن كميات من هذه الترجمة الروسية على متن طائرة أمريكية والقاء هذه الشحنة على الارض السوفيتية ، فاننى قد أجد نفسى أحبذ فكرة اقتحام الطائرات الامريكية للفضاء الروسى مرة أخرى !

قطاع غزة (*)

عندما دلفنا الى الطائرة التى ستقلنا من بيروت الى غزة كنا أمام أنموذج لحكومة المستقبل العالمية . فقد تألف زملاؤنا فى الرحلة من كولونيل نيوزيلندى يمثل لجنة الهدنة فى قطاع غزة ، وضابط هندى ، وجنديين برازيليين من قوة الطوارىء الدولية عائدين من اجازتهما فى لبنان ، أما جميع المدنيين الموجودين بالطائرة باستثنائنا (يقصد هو وزوجته) فكانوا موظفين فى وكالة الغوث والعمل التابعة للامم المتحدة .

وبينا نحن نبتعد عن الشاطىء طائرين جنوبا ، لم أستطع أن أصرف عينى عن اللوحة العريضة التى أخذت تتكشف . صيدا وصور : لقد رأيتهما وأنا على الارض ، ولكن هاهو «سلم صور» انه نهاية خط الهدنة - من ناحية البحر - بين لبنان واسرائيل ، وكل ما وراء هذا الرأس جديد بالنسبة لنا . عكا ، جبل كارمل : ماأروع أن تبصرهما لاول مرة ، وبعد ذلك تتوالى رقع من الهضاب الرملية بلونها الاصفر الفاقع ، وبيارات البرتقال بلونها الاخضر الداكن ، لابد أن هذه المنطقة المرتفعة الضخمة هى تل أبيب ويافا ، ثم هانحن الآن نغير اتجاهنا ناحية الجنوب الشرقى ، عبر الساحل . وتمرق من تحت الجناحين الهابطين مدينة غاصة بالاكواخ شمالا وشرقا وجنوبا . لابد أنها غزة ، بتاجها المصنوع من الشوك ، من خيام اللاجئين . هانحن نلمس الارض ونتأهب للتوقف ويقولون لى انه بعد نهاية الممر بياردات قلائل يرقد الخط الفاصل بين القطاع واسرائيل . ذاك المنزل وذاك الحصان ، القابعين هناك ، موجودان فى أرض اسرائيلية .

وبينما كانت عيناى تشربان اللوحة كان قلبى يجذب من أدراجه بعض الاشياء التى كانت تثيرها هذه المنطقة التى جئت لزيارتها . غزة ،

---

* القطعة رقم ٦٩ من كتاب « من الشرق الى الغرب . رحلة حول العالم » East to West. A Journey Round the World وكان قطاع غزة من بين الاماكن التى أتيح للكاتب زيارتها . وظهر الكتاب لأول مرة عامى ١٩٥٦ ، ١٩٥٧ .

لاجئون فلسطينيون: ألم يكن الفلسطينيون لاجئين قطعوا رحلتهم بالقوارب والعربات التى تجرها الثيران قادمين من جزر بحر ايجه الى دلتا النيل ثم استقروا فى القطاع بعد طردهم من مصر ؟ ألم تكن غزة أقصى مدينة جنوبية بين المدن الفلسطينية الخمس ؟ من المؤكد أن مواقع المدن الأربع الأخرى موجودة اليوم فى اسرائيل . غزة : فى هذا المكان جذب شمسون أعمدة المسرح ـ مرحبا بالموت ، مادام هذا سيقضى على أعدائه الفلسطينيين وفى هـــذا المكان أقدم القديس بورفيريوس ، ذلك المسيحى المقـــدونى المتعصب ، على تدمير معبد الهنا ، اله غزة وراعيها ، بعد أن جذب الأسلاك اللازمة فى القصر الامبراطورى بالقسطنطينية . انها أحـــداث مشئومة فى تاريخ غزة المحلى، اذ أن هناك فى قطاع غزة اليوم كثيرين من المتعصبين وكثيرين من الأسرى . وأعصابهم متوترة للغاية ، ولا أستبعد أن يقدموا على اجراء تدميرى يائس ، اجراء لن يحطم معبدا أو مسرحا واحدا ، وانما يجعل صرح المدنية كلها ينهار محدثا دويا فى آذان الجنس البشرى . وأحاول أن أسرى عن نفسى ، فأترك التفكير فى غزة الى التفكير فى رفح ، وأتذكر تلك المعركة التى دارت هناك عام ٢١٧ قبل الميلاد ، وفيها التقت الأفيال الهندية والافيال الافريقية لاول وآخر مرة فى التاريخ . (كسبت الافيال الهندية المعركة . كانت الافيال الافريقية أكبر حجما ، ولـكنها كانت أقل حظا من الهندية من ناحية التدريب وحسن القيادة) .

وأقصى طول للقطاع ، من رفح الى غزة ، هو خمسة وعشرون ميلا . ويتردد عرضه من ثلاثة أميال ، عند الطرف الشمالى ، الى خمسة أميال . وعلى طول الشاطىء تقريبا حزام من الهضبات الرملية ، واذ يتجه المسافر جنوبا داخل الاراضى ، يتحول المنظر الى صحراء ، ووراء غزة نفسهـــا مساحات من الحقول الخضراء وبيارات البرتقال ، تحف بها أسوار ضخمة من شجيرات دائمة الخضرة ، شجيرات جزورينا أو شىء من هذا القبيل . غير أن الطريق المتجه جنوبا يصل الى نقطة يتحول فيها هذا كله الى أسوار من التين الشوكى ، وحيث تتبدى رمال الصحراء من خلال الفجوات . وقبل كارثة ١٩٤٨ كان عدد سكان القطاع ٩٠٠٠٠ نسمة تقريبا ، غير أنهم بلغوا اليوم حوالى ١٠٠٠٠٠ر١٠٠ نسمة . بينما يبلغ عدد اللاجئين فى القطاع ضعف هذا العدد . والسكان الدائمون يعانون شـــظف العيش الآن ، ذلك أن شطرا من أفضل أراضيهم موجود فى الجانب الاسرائيـــلى لخط الهدنة . غير أن لديهم على الاقل مايتعيشون منه ، وما يمارسونه . أما اللاجئون فليس أمامهم سوى التفكير مليا فى الظلم الذى وقع عليهم . لقد أساء الألمان الى اليهود ، غير أن العرب ، لا الألمان ، هم الذين دفعوا

ثمن الأخطاء التى ارتكبها الألمان · وتم هذا على يد البريطانيين والامريكيين الذين انتصروا على الالمان الاعداء ، ويبدو هذا ، فى أعين العرب ، مؤامرة دبرتها أمم الغرب للقضاء على شعور العرب بالذنب تجاه اليهود ، وذلك بتعويض اليهـود على حساب العرب · ويتمثـل رد الفعـل ، فى قلوب اللاجئين ، فى الاصرار بعناد على رفع الظلم الواقع عليهم .. يجب اعادتهم الى أراضيهم وحقولهم فى ظل حـكم غير اسرائيلى ، فما الذى سـيحدث لليهود الذين استوطنوا الارض العربية التى أخذت عنوة ، وبدون ثمن ، منذ عام ١٩٤٨ ؟ ويرد العرب : «لقد خلقت انجلترا وأمريكا هذه المشكلة، وعليهما أن تجدا الحل» · وهو رد منطقى ، لكنه غير بناء .

وفى داخل كل معسكر يحتفظ اللاجئون بتنظيمهم القروى السابق اذ تخضـع كل قرية لزعامة رئيسـها « المختار » · وما زال لدى هؤلاء الرؤساء القدرة على تشكيل اتجاهات السكان ، وهم يميلون الى تشكيل اتجاهات عنيفة ، فهم الذين عانوا ــ أكثر من غيرهم ــ تحول المصـير · وبعضهم يملك أربعمائة أو خمسمائة فدان تقريبا من الارض المزروعة الى جانب أشجار الفاكهة ، وكل ذلك موجود فى الجانب الآخر من خط الهدنة ولكنهم يعيشون اليوم على الصدقة · لا مفر من أن يستشعروا مرارة ، وفى ظل الظروف الحالية لاتتقيد عواطفهم بالمسئوليات التى كانت ملقاة فى يوم من الايام على عاتقهم ، قبل أن يفقدوا بيوتهم · أما اليوم فان مسئولية اطعام اللاجئين ، وايوائهم ، وكسوتهم ، ورعايتهم طبيا ، وتعليمهم ، تقع على عاتق وكالة الغوث والعمل وعلى عاتق العاملين فيها ·

ان هذه الوكالة التابعة للأمم المتحدة تقوم بمهمة جليلة فى ظـل متاعب مستمرة ، متاعب مالية ، وسياسية ، ونفسية · وميزانيتهـا لاتؤخذ من اعتمادات الامم المتحدة العامة ، وانما من الأنصبة التى تدفعها بعض الدول الاعضاء (تدفع الولايات المتحدة نصيب الاسد ، تعقبهـا بريطانيا مباشرة ، وذلك اجراء عادل) · أما الخطوات التى تتخذها وكالة الغوث والعمل لاعادة توطين اللاجئين فى أماكن أخرى غير موطنهم الاصلى فتلقى معارضة من حكومات الدول العربية التى يعسـكر اللاجئون فى أراضيها (تقوم الحكومة المصرية بادارة قطاع غزة) . كما أن هناك معارضة من جانب اللاجئين أنفسهم · انهم يشعرون أن الرضوخ لهذا الاستيطان الجديد معنـاه انهم نبذوا حقهم فى العودة الى وطنهم · وقد نقول لهم : ان ألمانيا الغربية استوعبت لاجئى ألمانيا الشرقية داخل كيانها الاقتصادى ــ وحققت الرخاء والقوة بهذا الاجراء ــ دون أن تتخلى عن حقها فى الاراضى الالمانية التى استولت عليها بولندة والاتحاد السوفييتى غير أن هذا المثال

ـ الذى يبدو منـاسبا ـ لايقنع العقول العربيـة كثيرا • انهم يرون أن الاحتفاظ بحقهم يقتضى منهم أن يرفضوا اقتراحات الاستيطان باستمرار•

ولوكالة الغوث والعمل ميزانيتان : احداهما لسـد رمق اللاجئين والاخرى لتأهيلهم ، ولقد بلغ من ضآلة حجم الميزانية الاولى انها لاتعطى اللاجئين أكثر من حوالى ١٥٠٠ سعرا حراريا من الطعام فى الصيف ، ١٦٠٠ سعرا حراريا فى الشتاء ، أما استغلال ميزانية التأهيل فيتعرض للمعارضة السياسية من جانب الحكومات العربية • غير أن الوكالة تبلو بلاء حسنا فى ظل هذا الموقف المحير • ان أنصبة الطعام قد لاتكون مناسبة غير أنها توزع بكفاية وعـدالة ، كما أن هناك قائمة اضـافية للأطفال والعجزة والمرضى ، وتتمثل وجبة ساخنة تقدم لهم فى منتصف النهار • أما الخدمات الصحية فممتازة (وجدير بالذكر أن الجهود الخاصة برعاية الامومة تسترعى النظر). ويتم تعويض الامهات على احضار الاطفال الى عيادة المعسكر بمجرد ظهور أية بوادر شكوى ، أما الاعتماد الخاص بالتأهيل ـ والذى لا يمكن اسـتخدامه فى اعادة التوطين ـ فيستغل فى التعليم • ومستوى تعليم اللاجئين ، شأنه فى ذلك شأن الرعاية الصحية ، قد يكون اليوم أرفع مما كان قبل تشريدهم ، ويحتمل ألا تكون هناك مجتمعـات عربية كثيرة تنعم بهذه النسبة المرتفعة من فتيات المدارس • والفصل فى هذه الاجراءات يرجع الى وكالة الغوث والعمل ، ولكن ما نهـاية ذلك كله ؟ ان عـدد السكان اللاجئين يتزايد بسرعة وان أعدادا كبيرة منهم تتعلم لأى شىء ؟ ما الذى يتطلعون اليه عندما ينتهى تعليمهم وخاصة الاقلية القادرة التى دخلت المدارس الثانوية ؟ ربما كان أكبر جهاز مشجع فى القطاع هو مركز التدريب المهنى التابع للوكالة ، ويبدو أن امام الفنيين ، حتى اللاجئين منهم فرص العمـل الدائم • ولكن أين هؤلاء من الكثرة الغالبة ؟ •

واذا كان تسعمائة ألف لاجىء فلسطينى قنبلة ، فان مائتى الألف الذين يذوون فى قطاع غزة هم رأس هذه القنبلة المتفجر • هنا يكمن الخطر الذى يتهدد أمن العالم ، والذى يتحدى أيضا ضميره ، ولا يمكن حل هذه المشكلة البشرية الملحة دون تضحيات مؤلمة من جانب كافة جميع الاطراف المعنية : اسرائيل والدول العربية واللاجئين انفسهم • ومن واجب العالم أن يصر على التفاوض من أجل الوصول الى حل ، وان يدفع بسخاء من أجل تخفيف حدة مشاقه • واذا استعرضنا أمم العالم كلها وجدنا أن العبء الاكبر من المسئولية يقع على عاتق بريطانيـا العظمى والولايات المتحدة ، وفى هذه النقطة على الأقل ، لانستطيع أن نكذب حجج العرب •

مع أرنولد توينبى (*)

ان مجال هذا الرجل هو مدنيات العالم ، قديمها وحديثها ، وفترته الزمنية هى خمسة آلاف قرن من التاريخ المدون ، أما انتاج حياته الذهنى فيشمل عشرة أجزاء يتألف منها كتابه «دراسة للتاريخ A Study of History» وقد قيلت فى هذا السفر عبارات تصفه بأنه «رائعة خالدة» و « نقطـة تحول فى التاريخ نفسه» •

وكان ضيف المستر توينبى ، فى عام ١٩٥٥ ، هو كريستوفر رايت Christopber Wright الزميل بجامعة هـارفارد • وكان المستر توينبى قد بلغ فى هذه الآونة التاسعة والستين من عمره • ولكن ، كانت هناك مشروعات لكتب أخرى فى ذهنه ، وهو يذكرها هنا فى خاتمة حديثه •

أرنولد توينبى : انه لأمر غريب ، كما تعلم ، ذلك الامر الذى يتصل بجذور المرء • اننى أعرف جيدا ان جذورى هنا فى لندن ، وربما كان السبب فى ذلك أننى وانا طفل نشأت هنا ، وكنت صغيرا جدا ، ونحن لا نستطيع أن ننفق وقتـا طويلا فى الانتقـال الى الريف ، ولذا كان علينا أن نوجد الريف فى المدينة ، وهذه احدى مميزات لندن ، فأنت هنا تجد الريف أيضا • وعندما أرفع رأسى عن كتبى ، وأنا جالس الى مكتبى هنا ، تستقر عيناى دائما على خضرة تلك الشجرة ، وذلك البرعم الراقد هناك فى حديقتى • لست أقصد من وراء هذا بالطبع اننى لاأحب الاماكن الريفية • ربما كنت أحب مكانا فى يوركشاير أكثر من حبى للنـدن • وهناك مناطق فى ايطاليا واليونان أحبها جدا ، غير أن لندن ــ فى بعض الاحيان ــ هى المكان الذى أضطر الى أداء معظم عملى فيه ، هذا ماأكتشفه دائما •

(*) اذيع هذا الحديث على شاشة التليفزيون الامريكى فى حينه ، ثم نشر ــ بعد اعداده للطبع ــ فى كتاب « الحكمة » Wisdom الذى يضم أحاديث أخـرى مع حـكماء العصر الحديث من فلاسفة ، وساسة ، وفنانين ، ورجال دين •

كريستوفر رايت : اذن فقد ألفت الشطر الأكبر من «دراسة للتاريخ» هنا ، أليس كذلك ؟

توينبى : الواقع اننى منذ الحرب كتبت أربعة أجزاء هنا ، فى هذه الحجرة بلندن ــ معظم الاجزاء الاربعة على الاقل • وكتبت شيئا فى برنستون ، ونيوجيرسى ، وشطرا لابأس به وأنا فى المحيط جيئة وذهابا أما الأجزاء الستة الأخرى فقد كتبت معظمها فى يوركشاير التى كنت أتحدث عنها الآن •

رايت : ماهو الزمن الذى استغرقه تأليف الاجزاء كلها ؟

توينبى : لقد استغرقت سبعة وعشرين عاما يستثنى منها بالطبع سبعة أعوام التهمتها الحرب العالمية الثانية ، ومن الطريف أن أتذكر اننى عندما دونت كل مالدى من نقاط ظننت أننى أستطيع كتابتها فى صيفين: ولكنها استغرقت منى سبعة وعشرين عاما •

رايت : كثيرا ما تساءلت فى دهشة : كيف تسنى لك أن تبدأ فى مثل هذا المشروع ؟

توينبى : أعتقد أن الجواب موجود فى الواقع عند أمى • ليس معنى هذا أنها اقترحت الموضوع • لقد كانت هى الاخرى مؤرخة ، ولقد نشأت وأنا أفترض أنى سأغدو بدورى مؤرخا بسببها • هاك صورتها ، انها على مكتبى دائما ، تبدو جد شابة • لقد كانت فى أحد الفصول النسائية التى سبقت غيرها فى تلقى دراسات جامعية بجامعة كيمبردج بانجلترا • وعندما كنت صغيرا ، وعندما كانت توسدنى فراشى ليلا اعتادت أن تحكى لى تاريخ انجلترا فى حلقات ، الى أن انتهينا منه تماما خلال عام تقريبا •

رايت : يخيل الى أننى أذكر اشارتك أيضا الى أفراد آخرين فى أسرتك ، بعض الأخوال ، أليس كذلك ؟

توينبى : حسن ، نعم ، هذا صحيح • كان هناك مثلا خالى الكبير هارى الذى كان يعمل قبطانا ، لم يبحر أبدا فى باخرة ، وانما كان يركب على الدوام احدى هذه السفن ذات الأشرعة الثلاثة ، ولقد وضع العالم فى خريطة أعدها لى ــ رأس الرجاء الصالح والهند وكل محيطات العالم • ماأبعد هذه الطريقة عن طريقة خالى باجيت ، الذى كان أستاذا مدققا ، أذكر أنه أرسل فى طلبى وأنا فى السادسة عشرة من عمرى ، وذكر لى أن من واجبى أن أتخصص ، وقررت ، على الفور ، اننى بسبيل ذلك • ويخيل الى أن اسم الأسرة مشهور بسبب خالى أرنولد ، الذى أخذت عنه اسمه •

مات صغيرا ، وهو فى حوالى الثلاثين من عمره ، وكانت «قاعة توينبى» أول مقر فى لندن ينشأ تخليدا لذكراه ٠

رايت : ازاء كل هذا التنوع فى اطارك الاسرى يهمنا أن نعرف من الذى أثر عليك أكثر من غيره ٠ كيف أصبحت مؤرخا ؟ أعتقد أن ذلك مرجعه ، دون شك ، الى والدتك ــ أليس كذلك ؟

توينبى : اننى على يقين من أن والدتى هى السبب ٠ وفى مرحلة من المراحل كادت مدرستى تطغى على هذا التأثير ٠ لقد التحقت بمدرسة عتيقة جدا ، مدرسة وينشستر ، التى تأسست فى نهاية القرن الرابع عشر ٠

وكانت دراستهم آن ذاك ، كلاسيكية ، من القرن السادس عشر ، مع ادخال تجديدات عليها ٠ ولاءمتنى هذه الدراسة ٠ كانت هناك ترجمة لفقرات انجليزية ، الى اللاتينية واليونانية ٠ والشيء المدهش أن الدراسة التى كانت تبدو محدودة الأفق أدت الى توسيع مداركى ٠٠ اليك امرسون ــ كان أستاذى يعتقد أن امرسون هو أصلح كاتب يمكن أن نترجمه الى نثر اليونان الأفلاطونى ! وجعلنى هذا أعرف امرسون ٠

رايت : تلك فكرة طريفة ــ أن تفضى تربية محدودة متخصصة ، فى مظهرها ، الى عديد من الاهتمامات ٠

توينبى : نعم ، انها تفعل ذلك ٠ اننى أفكر الآن فى هيرودوت ٠ عندما كنت بالمدرسة كان على أن أترجم كمية رهيبة من كتابات هيرودوت اليونانية الى الانجليزية ٠ كان هيرودوت مؤرخا يونانيا قديما يكتب فى القرن الخامس قبل الميلاد ، غير انه أصبح بالنسبة لى نسخة ثانية من خالى هارى ــ اذ فتح لى رقعة شاسعة من آسيا ٠ آه ٠٠ لقد بلغ من شغفى بقراءة هيرودوت وأنا بهذه المدرسة اننى أعددت كتابا مصورا ، صبيانيا، وكتبت مقالة وزينتها بالرسوم أيضا ، تماما مثلما كان يفعل هيرودوت ٠

رايت : أما زال هذا الكتاب المصور فى حوزتك ؟

توينبى : نعم ، انه عندى ٠ الواقع انه ورائى الآن تماما ٠

رايت : فهل تسمح لى بتصفحه ؟ اننى أود ذلك ٠

توينبى : تستطيع بكل تأكيد ٠ هاك الكتاب ، نحن الآن فى عام ١٩٠٣ ٠ لابد اننى كنت فى الرابعة عشرة من عمرى حين كتبته ٠ هاهم حرس أجزير كسيز Xerxes ٠

رايت : جميل جدا · كل هذا وانت فى الرابعة عشرة من عمرك ؟

توينبى : نعم · انه لأمر طريف ولكنك اذا تصفحت الجزء السابع من «دراسة للتاريخ» فستجد مقالا عن جيش اجزيركسيز ، هـذا المقال امتداد للمقالة الصبيانية التى تراها هنا مع استبعاد الرسوم · لم يكن بمقدورهم أن يعيدوا طبع الرسوم · وهاك كتابا آخر أكثر قدما · لاأذكر كم كان عمرى عندما فعلت ذلك ، ربما كنت فى السابعة آن ذاك ·

رايت : غير أن كل الاجسام المرسومة هنا لها رءوس حيوانات · لم ذلك ؟

توينبى : آه ، هذا صحيح · أوه · الآن تذكرت ــ كانت أمى تقرأ لى ، آن ذاك ، فى كتاب «العم ريموس» Uncle Remus وبهرنى « العم ريموس» وهكذا استحالت كل الشخصيات ، فى هذا البحث بأكمله ، الى شخصيات لها رءوس حيوانات ــ وكلها مأخوذة عن رسوم «العم ريموس» ·

رايت : اذن فقد عشت فى الماضى زمنا كبيرا وانت صبى ؟

توينبى : أعتقد اننى فعلت ذلك ، ولكن من الطريف أن المـاضى أعادنى بعد ذلك الى الحاضر · اننى أشير الى رحلتى الاولى الى اليونان · حدث هذا عام ١٩١١ ، قبل نشوب حرب البلقان بعام واحد · ذهبت الى اليونان لا لشىء ، الا لأدرس التاريخ القديم ــ ولم تكن لدى أدنى فكرة عن العالم الحديث · غير أن هذه الرحلة الى اليونان ، من أجل التـاريخ القديم ، هى التى وضعت العالم الحديث أمامى فى وسط اللوحة · وكان هناك على ظهر المركب المبحر الى اليونان ، أمريكى يماثلنى فى السن ، وكان قد مارس نصف دستة من الوظائف المختلفة ، واستطاع أن يدخر من المال مايمكنه من الطواف بالعالم · وأذهلنى · كنت أظن اننى غير متخصص بالقياس الى خالى باجيت ، غير أننى صرت متخصصا تماما بالقياس الى هذا الامريكى الشاب ·

وأستطيع أن أتذكر كيف كنت أطوف باليونان ، وأقضى الليل فى قرية يونانية ، وأذهبالى متجر المدينة ، وأستمعالىالرجال وهميتجاذبون أطراف الحديث·كانوا يتكلمون عن شىء اسمه : السياسة الخارجية للسير ادوارد جراى Sir Edward Grey فى انجلترا · غير أنهمكانوا يتحدثون عن هذا ، عن وزير خارجيتى أنا ، ويربطون بينه وبين حرب ستنشب اما فى هذاالربيع أو فى الربيعالتالى ، حسن ، أدهشنى هذا كثيرا . لم أسمع

قط بهذا فى انجلترا . غير أن حديثهم وضع لى المسائل الدولية فىاللوحة . الواقع انه كان أول درس لى فى المسائل الدولية .

رايت : فكيف ساعدك ذلك فى عملك ؟

توينبى : يخيل الى أننى لم أكن لأستفيد منه لولا أن الحرب العالمية الاولى نشبت بالفعل ، وكان اليونانيون يعرفون انها ستنشب ، وعندما اندلعت ، ونظرا لاننى طفت باليونان وتركيا قليلا وألممت بشىء عن الشرق الأدنى الحديث ، أخذونى فى وزارة الخارجية البريطانية . كنت قد أصبت بالدوسنطاريا فى اليونان ، ولذا لم يكن بمقدورى أن أنضم الى الجيش . وعند نهاية الحرب ، استقر بى المقام فى وفد وزارة الخارجية الى مؤتمر السلام بباريس .

رايت : اذن فأنت لم تعد بعد ذلك قط الى التاريخ القديم البحت ؟

توينبى : الواقع اننى كنت آن ذاك أقف بين الماضى والحاضر ، وخلال الحرب ، وفى طريقى الى مؤتمر السلام بباريس ، اشتغلت لدى لورد برايس – جيمز برايس James Bryce مؤلف كتاب الكومنولث الامريكى The American Commonwealth كان انموذجا للعلم بالنسبة لى . ها هو مؤرخ كبير ، وفى الوقت نفسه سياسى كبير ، وسفير ، ورجل يلم بأمور الدنيا . لقد مزج بين الماضى والحاضر . لاحظت هذا .

رايت : أرجو ألا أكون مخطئا اذ أذكر أنك ذهبت الى اليونان مرة أخرى ، وعملت مراسلا ، أليس كذلك ؟ مرة أخرى مزيد من العمل .

توينبى : بذلت محاولة أخرى فى ذلك الميدان ، وكانت فى الجانب العصرى هذه المرة . كانت جامعة لندن قد أنشأت كرسيا جديدا لمادة اليونانية الحديثة ، وعينت فى هذا المنصب . وقادنى هذا الى آسيا من جديد . وبعد الحرب العالمية الاولى كان اليونانيون والاتراك يخوضون غمار حرب خاصة بهم فى آسيا الصغرى ، وأردت أن أرقب هذا الامر . وكان على أن أدفع نفقات رحلتى من جيبى الخاص . وهكذا عملت مراسلا لصحيفة «مانشستر جارديان» . وأوقعنى هذا فى المتاعب ، وحدثت أشياء مزرية للغاية ووقعت فى ورطات . وأخرجونى من منصب الاستاذية ، وانتهى بى المقام فى « شاتهام هاوس » .

رايت : ونظرا لان «شاتهام هاوس» معهد للمسائل الدولية فقد جعلك هذا مشغولا بالمسرح المعاصر ، أليس كذلك ؟

توينبى : هذا ما حدث – هناك ذلك المسح السنوى للمسائل

الدولية ، وقد ظللت أصدره لثلاثين عاما . وهذا يقودك بالطبع الى الماضى، فعليك أن تتعمق الاحداث الراهنة ، ومعنى ذلك : أن تراها داخل اطارها التاريخى . وقد يعود بك هذا الى عشر سنوات مضت أو مائة عام أو مئات ان كل نقطة قد تكون لها صلتها بالموضوع .

رايت : ولكن ، كيف يتسنى لك اصدار هذه الدراسات السنوية — التى تتطلب وحدها مجهودا كبيرا — وتنفذ ، فى الوقت نفسه ، ذلك المشروع الخاص بدراسة التاريخ كله .

توينبى : الجواب هو : زمالتى مع زوجتى . فخلال تلك الاعوام الثلاثين كنا ، هى وأنا ، نعد المسح السنوى معا . وما زلنا نعد ، سويا ، تاريخا للحرب فى السلسلة نفسها . هذا هو جوابى على السؤال ، وأعتقد أنه كاف للغاية . لقد كانت زمالة كاملة بالنسبة لى .

ثانيا : قدر معين من تنظيم المرء لحياته . اذا كان للمرء أن ينجز شيئا فعليه أن يتعلم أنه لايستطيع انجاز أشياء أخرى . ان الأوتوبيس الذى يقلنا الى منزلنا كل مساء يمر بنا أمام «ألبرت هول» ، بلندن ، حيث يقيمون حفلات الموسيقى ، وكثيرا ما نشعر بالخجل حين نرى الشباب عائدا من عمله وقد توقف عند «ألبرت هول» ليستمع الى احدى الحفلات الموسيقية دون أن يتناول عشاءه — و — حسن ، ونشعر بأننا شخنا ، ولكن ، كل مافى الامر اننا مرهقون جدا . علينا أن نتخلى عن الحفل الموسيقى . انك تتخلى عن الكثير . ولكن عليك أن تفعل ذلك اذا أردت انجاز عملك .

رايت : هذا صحيح . ومع ذلك ، أفلا نستطيع أن نقول ان مؤلفا كمؤلفك «دراسة للتاريخ» كان يمكن أن يعده مجموعة من الكتاب ؟ لماذا اضطررت الى انجازه بأكمله وحدك ؟

توينبى : لا أعتقد أن هناك لجنة تستطيع أن تؤلف كتابا . ان هناك أشياء لاحصر لها مما تستطيع اللجنة انجازه . انها تستطيع أوه ، ربما تستطيع أن تحكم بلدا . ولكنى لاأعتقد انها تستطيع تأليف كتاب ، أعتقد أن الكتاب يجب أن يكون وليد عقل واحد . وليس من شك فى أنها مهمة ضخمة ، ثقيلة ، وأعتقد أن الكاتب سيحصل من الآخرين على كل مايستطيع من عون — اذا كان عاقلا . غير أن المسئولية تقع على عاتقه وحده ، يجب أن تمر مادة الكتاب من خلال عقله . ولكنه يحصل من كل مكان يستطيع الحصول على العون منه .

لقد تعلمت الكثير فى هذا المجال من اعدادنا للمسح السنوى

للمسائل الدولية ، ثم طبقته على الكتاب الآخر ، كتاب «دراسة للتاريخ» تعلمت كيف تتعرف على آراء نقادك فى كتابك قبل أن تنشره ، قبـل أن يفوت أوان التغيير والتعديل بدلا من أن تنتظر حتى ينقدوا كتـابك فى الصحف ويذبحونه ، لقد طبقت هـــذا المبدأ كثيرا فى أجزاء من الكتاب شعرت فيها اننى لست متمكنا ، أو فى مواضع لم أقف فيها على أرض صلبة • وانا أفكر أيضا فى مدى استفادتى من المؤلفات المفصـــلة التى وضعها ، فى الآونة الاخيرة ، لامؤرخونا فقط ، وانما المستشرقون وعلماء الآثار أيضا • وأرى انه لابد من وجود رجل واحد ينجز ذلك كله • ولكنه اذا كان عاقلا فسينشد العون من كل مكان يستطيع أن يجد فيه العون •

رايت : هل تعتقد فى امكانية وجود دراسة واحدة ، معتمدة للتاريخ؟

توينبى : لا ، لاأعتقد ذلك ، لان التاريخ يتحرك دوما • بالأمس ، وأنا أتصفح جريدتى وأتتبع مايصنعه المستر دالاس والمستر ايدن ، كانت عينى الاخرى تتابع مايفعله علماء الآثار ، ذلك لانهم كانوا يقلبون تاريخ ألف العام الثانى قبل الميلاد ، يقلبونها رأسا على عقب ــ لقـد اكتشفوا موقعا قديما فى الاناضول ، كان التاريخ يتحرك بأسرع مما يتحرك القرن العشرون •

رايت : اذن فأنت ترى أن التاريخ تجميع لتجارب الأمس للاستفادة منها اليوم ؟

توينبى : نعم ، والتاريخ الذى لا يستغل ليس شيئا بالمرة • ان الحياة الفكرية كلها عبارة عن حركة وعمل ، شأنها شأن الحياة العملية ، واذا لم تستخدم هذه المادة ــ حسن ، انها ستكون فى حكم المادة الميتة •

رايت : يبدو مما تقوله : انك لم تكن بمستطيع تأليف « دراســة للتاريخ» لولا دراستك للمسائل المعاصرة فى «شاتهام هاوس» •

توينبى : نعم وعلى كل فان العصر الوحيد الذى تضع فيه يدك على أناس أحياء هو عصرك أنت ، عندما تكون حيا•فاذا حسن ، ربما استطعت اذن أن تحيى الذين عاشوا فى عام ١٠٠٠ أو ٢٠٠٠ قبل الميلاد • ولكنك اذا عجزت عن دراســـة الاحياء ودراسة طبيعتهم ، عجزت عن دراســـة الجنس البشرى فى أى عصر كان •

رايت : أفهم أن هناك عنصرا شخصيا فى تحليل أى مؤرخ للتاريخ• ولكن ، لابد من وجود عنصر علمى أيضا ــ لابد من ظهور أنماط معينة ، أليس كذلك ؟

توينبى : تلك نقطة يتحمس لها الناس كثيرا في هذه الايام • وهناك كما تعرف ، خلاف كبير حول هذه النقطة • وأعتقد اننى أعنى بكلمة (علم) اكتشاف ، وفهم ـ أوه ، اكتشاف وفهم أنماط متكررة ، موحدة ـ تتردد ـ وهو مايسميه العلماء ب «القوانين» وبعض المؤرخين ينكرون تماما مثل هذا التكرار والتوحيد فى الامور الانسانية • وهم يقولون ، كما تعلم : ان التاريخ لايكرر نفسه • ولكنى متعصب ، الى حد ما ، لهذه النقطة • واعتقد أن التاريخ يكرر نفسه الى حد ما • واعتقد أن فى مقدورك اكتشاف عدد معين من الاشكال الموحدة فى التاريخ القديم •

ولكنى لست حتميا فى الوقت نفسه • ولا أعتقد اننا محرومون من الارادة الحرة • ولا أعتقد أن أنماط الماضى تتكهن بالمستقبل وتحدد شكله أعتقد أن فى هذه الانماط عنصرا من عناصر الحرية •

رايت : ترى ما نظريتك فى التاريخ ؟

توينبى : انه سؤال ضخم • يخيل الى اننى اكتشفت منذ البداية أننى لا أستطيع أن أتناول الأمم كوحدات فى دراستى التاريخية . معظم مؤرخينا يكتبون التاريخ على أنه تاريخ أمم . غير أننى وجدت أن الامم أصغر من أن تتناسب مع الدراسة التاريخية ، وأحسست بأنها شذرات من شىء أضخم ، شىء كان على أن أسعى وراءه . وهكذا سعيت وراء المدنيات . مثال هذا أننى لم انظر الى الامور على اعتبار انها مجرد تاريخ أمريكى أو تاريخ فرنسى أو تاريخ ايطالى ، وانما على أنها تاريخ غربى ، أو تاريخ اغريقى ، أو تاريخ هندى ، وهكذا ـ وحدات ضخمة، حوالى عشرين منها . وشرعت أدرس تشريح هذه الوحدات ـ أو بمعنى آخر : تاريخ حياتها . وخيل الى أننى وجدت أن عددا منها انهار وتمزق اربا اربا ، وأن هذه النهاية حلت بها داخل نمط معين . غير أن هذا لم يجعلنى حتميا • لم يجعلنى أومن بأن المصير سيحل لا محالة بمدنية مثل مدنيتنا ، والتى ما زالت حية . وانما جعلنى احس أن هناك تحديا كبيرا لأية مدنية تظهر عليها بوادر الانهيار ، وهو ما تبديه مدنيتنا اليوم • ولكنى أومن بأن أمامنا حرية تقرير مصيرنا •

غير أننى لم أنته عند المدنيات ، ذلك لأنك حين تدرس انهيار المدنيات فى الماضى وارتطامها ، الواحدة بالأخرى ، تجد أنك تصل الى منشأ ديانات العالم الكبرى ـ المسيحية ، والاسلام ، واليهودية ، والبوذية ، وغير ذلك . ولقد انتهيت ، فى أجزائى الاخيرة بوجه خاص، الى أن الديانات الكبرى هى الأنماط الكبرى للتاريخ ، وأنه يحتمل أن

تتكهن بالمستقبل . بدأت ، كما قلت ، بالمدنيات باعتبارها مفتاحى الأول الذى أفتح به مغاليق التاريخ ــ هذا اذا استطاع انسان أن يفتحها ثم عثرت على مفتاح ثان ، وأعتقد انه يوصلك الى نقطة أخرى ، هذا المفتاح هو الديانات الكبرى .

رايت : كيف يتعرف انسان الى مدنية أو يكتشف سماتها ؟

هل هناك عنصر معين يميز مدنية عن أخرى ؟

توينبى : كانت نقطة البداية فى عملى : الوحدات القومية ، وشرعت اتوسع وأقول لنفسى ان الوحدات القومية ليست كاملة فى حد ذاتها . أنت لا تستطيع أن تفهم التاريخ الامريكى من مجرد دراستك لأمريكا ، ولكنى أريد أن أرى أصغر الوحدات التى تستطيع أن تفهم منها امريكا ، وقادنى هذا الى ما أسميه بالعالم الغربى ــ المسيحية الغربية بالذات ــ ذلك الجزء من العالم الذى لا يعدو أن يكون جزءا صغيرا غير أنه أكبر بكثير من أية أمة واحدة . ومع ذلك فهذه الوحدة الاكبر تسير على الأساليب والعادات نفسها ، ولديها التقاليد نفسها ، والديانة نفسها ، واسلوب العيش . أقصد أنك لا تستطيع ان تفهم التاريخ الامريكى دون أن تعرف شيئا عن أوروبا الغربية ولكنك قد تفهم التاريخ الامريكى دون أن تعرف الكثير عن الهند ، أو الصين ، أو العالم الاسلامى .

رايت : أى نوع من الاتجاهات يلم شمل المدنية ؟

توينبى : حسن ، اذا فكرنا مرة أخرى فى مدنيتنا الغربية ، خيل الى ان الذى يلم شملها احتفالنا بالحرية الفردية ــ أو ما يمكن أن تسميه بقدسية شخصية الفرد. أما بالنسبة للمدنية الهندية فقد يكون الرابط نوعا من انواع الزهد فى هذا العالم ــ شعور الهنود بأن النجاح المادى والانتصار المادى نوع من الوهم وأن الشىء الحقيقى انما يوجد فى غير هذا العالم .. وهو أمر يبدو مختلفا عن وجهة نظرنا . اما الذى يميز الصينيين فهو احتفالهم الكبير بالروابط الأسرية . والتقاليد . وهكذا ترى أنك أمام ما يمكن تسميته بـ « الأسلوب » ان شبنجلر يستخدم هذه اللفظة فى حديثه عن المدنيات و «الإسلوب» هو الذى يميز مدنية عن اخرى .

رايت : هذه الاحاسيس تلم شمل المدنية ، ولكن لماذا اذن تنهار المدنية او تتحلل ؟

توينبى : اعتقد أن السبب فى ذلك ــ ولنستخدم اصطلاحا عتيقا

ـ الخطيئة الاولى المركبة فى الطبيعة البشرية ، كما ان السبب موجود فى افتقار شئون البشر الى الكمال . ان كل ما هو بشرى يميل الى الانهيار • أننا نعيش فى خطر دائم ، وعلينا ــ دائما ــ أن نكون على حذر، ذلك لأن اليقظة الأبدية هى الثمن الذى ندفعه لقاء أى شىء تحققه الكائنات البشرية .

رايت : هل تقصد انك تعتبر المدنية شبيهة بخلية حية مآلها الموت ؟

توينبى : لا ، أنا لا أفكر فى المدنية على هذا النحو • ويخيل الى ان ذلك تشبيه زائف . وأعرف أن الكثيرين أوردوا هذا التشبيه . ولكنى لا اعتقد أن المدنية ــ التى لا تعدوا أن تكون شبكة ضخمة من العلاقات بين الافراد من البشر ــ لا أعتقد انها مثل الخلية الحية تماما • واذا كنا نعرف أن أية خلية واحدة لا بد أن تموت ان عاجلا أو آجلا ، فان هذا لا يعنى أن نظام الصلات والروابط يجب أن يموت .

رايت : ومع ذلك ، فقد وجدت أن المدنيات قد •••

توينبى : قد ماتت فى الماضى ، نعم • ولكن ذلك لا يجعلنى ، مرة أخرى ، أومن بالقدر أو المصير • لقد لاحظت ، على سبيل المثال ، أن اعمارها تمتد لفترات مختلفة . فبعض المدنيات عاشت بضع مئات السنين فقط ، على حين عاش البعض ألف سنة او خمسة عشر ألف سنة .

رايت : فما هى السمات التى تميز مدنية قصيرة الأجل عن أخرى طويلة الأجل ؟

توينبى : ان هذا يقودنى الى عبارتى ، أو قل : عبارة روبرت براونج : التحدى والاستجابة • أعتقد انه فى كل لحظة من حياة كل فرد فينا ، وفى كل لحظة من حياة مدنية من المدنيات ، يتحدانا على الدوام موقف جديد ــ موقف علينا أن نواجهه ، فاما نجحنا او فشلنا . وقد نفشل فى أية لحظة ونبدأ فى الانحدار ، وقد ننجح ونستمر فى العيش .

رايت : فأين تقف مدنيتنا الآن على ضوء تحليلك ؟ وبعبارة أخرى : ما التحدى الذى يواجهنا فى هذا العصر وما الاستجابة المتوقعة ؟

توينبى : أود أن أقول ان التحدى يتخذ الشكل التالى : هل سندع أنفسنا نسير فى الطريق الذى سارت فيه جميع مدنيات الماضى

التى انهارت ، كما تعرف ، وتمزقت اربا اربا ؟ نستطيع أن نلمس مظاهر كثيرة للموقف نفسه ـ أهمها أن زمام الحرب أفلت . ونحن نعرف ماذا كانت النتيجة فى تاريخ المدنيات السابقة ؟.

هل يجب علينا ان ندع هذا يحدث ؟ هل نقف مكتوفى الايدى وندع مدنيتنا تنهار ؟ أم اننا نستطيع انقاذها ؟ اعتقد أن هذا يشكل تحديا . وانا ، شخصيا ، متفائل ، ذلك لانى أومن بقدرتنا على انقاذ انفسنا اذا شئنا ذلك .

رايت : يخيل الى اذن ، اذا نظرنا الى مسألة تجنب الحرب ، الحرب المدمرة ، أن التحدى الحقيقى انما يواجه الولايات المتحدة وروسيا ، وهما مطالبتان بتجنب الحرب .

توينبى : نعم . وليست المسألة سهلة ، وخاصة أن العالم كله منحاز الى مجرد معسكرين كبيرين ، فقط ... كما أنه مسلح بهذه الاسلحة الذرية . أننى ألمس هنا شيئا جديدا . لم يسبق لنا أن امتلكنا أسلحة بهذه القدرة على التدمير . كما انى ألمس هنا شيئا يدعو الى الأمل . فبالرغم من أن أسلحة جديدة قد اخترعت فى الماضى ، وبالرغم من آثارها المروعة ، فاننى لم أسمع فى التاريخ بسلاح جديد أثر على اخيلة الناس مثلما اثرت الاسلحة الذرية على أخيلتنا . أعتقد أن بلايين الناس ، فى جميع انحاء العالم ، قد عرفوا تماما أن ظروف الحرب تغيرت ، واعتقد أن هذه النقطة بشير أمل .

رايت : اذن فاكتشاف الطاقة الذرية لاينذر بقدر محتوم وانما يبعث فى نفسك الأمل ؟

توينبى : نعم . من الواضح اننا نمر بفترة عسيرة جدا ، وخطيرة ، وقلقة . ولكنى لا أرى فيها علامات المصير المحتوم .

رايت : عندما أفكر فى المجال الضخم الذى يتناوله كتابك « دراسة للتاريخ » ، أتساءل فى دهشة : ما مكان الفرد فى هذه المدنيات التى تتحدث عنها ؟

توينبى : تلك نقطة هامة ، أليس كذلك ؟ ذلك لان المرء ، عندما يستعرض تاريخ الماضى، يجد قلة من الافراد الذين ـ حسن ، الذين صنعوا التاريخ. اننى أفكر الآن فى المستر تشرشل عام ١٩٤٠، عندماكتب يقول انه يشعر بأنه يسير مع القدر . وكان يقصد بذلك : انه مسئول شخصيا عن صياغة مجرى الامور . ولكنى أومن بأن الناس جميعا هم الذين

يصنعون التــاريخ . ربما كان المستر تشرشل قد قام بدور الزعيم ، ولكن لو لم يتبعه خمســـون مليونا من الرجال ، والنســـاء ، والاطفال البريطانيين ، لما كان لهذه الزعامة وزن يذكر . ان لكل واحد فينا وزنه في التاريخ ، وان يكن هــذا بدرجات متفــاوته . ومهما يكن الأمر فان الأفراد هم الحقائق الوحيدة في التاريخ ، أليس كذلك ؟ ليس هنـــاك غير الصلات بين الكائنات البشرية . واذا كان التاريخ لا يكتب على يد الكائنات البشرية ، فانه لا يكتب على يد أى شىء آخــر . ان كل شىء يصاغ ويتحلل ، كل شىء يخلق ويتحطم ، كل شىء ينجح أو يفشل . كل هذا يتم على يد الأفراد .

رايت : ولكن ، يبدو لى انك حددت التحدى ايضا في صورة الدين .

توينبى : نعم . وأعتقد أن أى تحـــد حين يمس الشـــغاف ، حين يضعك فى مواجهته بالفعل ، يجعلك مع الدين وجها لوجه . ولقد غابت عنا هذه النقطة فى عالمنا الغربى ، فمنذ قرنين أو ثلاثة تقريبا ، وبعد تلك الحروب الدينية التى تقاتلنا فيها ، الكاثوليكيون منا والبروتستانتيون ، سئمنا الدين : بدا لنا الدين وهو لا يفضى الى شىء ســوى الحــرب والشحناء والكراهية والقسوة ، وتحولنا الى أشياء أخرى — الى العلم والتكنولوجيا — باعتبارهما اهتمامات مأمونة ، اهتمامات بريئة بالقياس الى الدين . ولكنى أعتقد أن الكائنـــات البشرية لا تستطيع أن تعيش قط بدون دين . وعندما تعترضك فترة متأزمة ، ونحن نعيش فى فترة متأزمة من الناحية الروحية ، فان الدين يواجهك ، وعليك أن تعالجه .

ومن الصعب جدا أن يحدد المرء ما الذى يعنيه بكلمة الدين ، أليس كذلك ؟ أعتقد أننى أقصد بها : السر الكامن وراء الاشياء التى نستطيـــع أن نتناولها ونلمسها — السر الكامن وراء الظواهر ، كما نسميها . لا يكفى أن ندرك أن هناك سرا ، وانما يجب أن نشعر بالتواضع الشديد أمامه ، وبالرغبة فى الاتصال به ، والانسجام معه . فاذا نظرت الى الدين هــذه النظرة العريضة ، فهذا ما أعنيه بكلمة الدين . وأعتقد أننا اذا رجعنـــا الى الدين فلن نرجع اليه وهو بالصورة التى كان عليها يوم ابتعدنا عنه . ان الامور لا تكرر نفسها على هذا النحو . أريد أن أقول ان كل التجــارب التى مررنا بها ، والاشياء التى تعلمناها ، ستندمج فى نظرتنـــا الجديدة الى الدين .

رايت : لقد سعيت الى الالمام بالكثير من الامور ، وكثيرا ماعن لى أن أسألك : ما الحدود التى ترى أن ادراكنا قد يقف عندها ؟

توينبى : فيما يتعلق بى وحدى ، آمل أن أكون قد تعلمت ــ حسن، تعلمت ما يكفى لاعلامى بضآلة معارفى • وعلى كل فكلما تعلمنا ــ أليس هذا صحيحا ؟ أكتشفنا مدى ضآلة معرفتنا • ونحن نرى العالم المـــادى ممتدا من ناحية الى ما لا نهاية ، وممتدا من ناحية أخرى امتـــدادا ضئيلا جدا لا يكاد يذكر • أفلا ينطبق هذا الوضع على العالم الروحى أيضـــا ؟ ونظرا لان علماء النفس يطلعوننا على عالم لانهائى فى داخل كل واحد منا، ولان الديانات الكبرى ترينا عالما لانهائيا خارجنا ، فاننى أعود الى النقطة التى سبق أن أشرت اليها ــ وهىأننا نرجع الى السر الكامن وراء الظواهر، فاذا اقتربنا من هذا السر فى تواضع فانه يعيدنا الى الدين وجها لوجه •

رايت : أفهم مما قلته لى أنك لن تدهش اذا رأيت أن كتابك «دراسة للتاريخ » سيغدو عتيقا فى المستقبل ، ما رأيك ؟

توينبى : اننى على يقين من أنه سيغدو عتيقا • اننى أعتبر أفكارى •• حسن ، أعتبرها مفاتيح لفتح سلسلة من شئون البشر • وأعتقد أنها مفاتيح جيدة ، وأنها تفتح الابواب بالفعل • غـير أن لكل آلة وظيفتهـــا وامكانياتها المحدودة • والتاريخ يتحرك اليوم بسرعة كبيرة كمـــا قلنا • والذى آمله أيضا ، كنتيجة من نتائج كتابى ، أن أحفز الآخرين الى دخول ميدان البحث هذا • وكلما ازدادت الجهود المبذولة فى هذا الميدان تغيرت أفكار الناس بصورة أسرع ، وفى وقت مبكر•وسأعتبرها علامة من علامات النجاح اذا حل مجهود آخر محل مجهودى الشخصى • ان مجهودى مجرد دلو من الماء ألقى فى نهر • ولن يتغير تدفق المـــاء فى النهر الا بمقـــدار طفيف للغاية •

رايت : فهل تعتزم المضى فى دراستك الى أبعد من ذلك ، أو أن لديك مشروعات أخرى فى المستقبل ؟

توينبى : لدى مشروعات أخرى ، نعم ••• كل الاشـــياء التى لم أنجزها لأننى كنت مشغولا بهذا الكتاب المطول خلال تلك الاعوام • لقد أعددت بعض دراسات عن التاريخ اليونانى والتاريخ الرومانى ، وكنت قد وضعت خطتها قبل الحرب العالمية الاولى ، وسأنتهى منهـــا الآن • وهناك ، مرة أخرى ، كتابى « دراسة للتاريخ » ، كما أن ازدياد الاهتمام العام بنظرته العريضة الى الشئون البشرية قد أثار مناقشة ونقداكبيرين،

وآمل أن تتضاعف المناقشة ويتضاعف النقد · وسيدفعنى هذا الى اعادة النظر فى أفكارى (١) · ويحتمل أن يظهر هذا فى شكل كتاب جديد ·

رايت : يبدو لى أن ايمانك بالمستقبل يكذب من وصفوك بأنك تنذر بمصير محتوم ·

توينبى : كريستوفر ، اننى أومن بأن الحياة حركة · انها حركة، وان لم تتحرك منيت بالفشل · وأعتقد أن هذا واضح تماما فى حالة الرجال الايجابيين · وأنا على يقين من أنه ينطبق على أناس مثلك ومثلى ـ على الأساتذة ، والفلاسفة ، والمؤرخين . وعلينا ، شأننا شأن الآخرين ، أن نستغل ـ بأفضل صورة ممكنة ـ الوقت والطاقة اللتين نملكهما فى حياتنا ، والحياة قصيرة ·

وخلال تلك الفترة الطويلة التى استغرقها تأليف كتابى كنت أسمع ، بأذنى عقلى ، سطورا لشاعر انجليزى · كان يكتب منذ ثلثمائة عام مضت ، غير أن كلماته حية اليوم مثلما كانت حية بالأمس · انها أبيات أندرو مارفيل Andrew Marvell التى يقول فيها :

بيد أنى أسمع دائما من ورائى

عربة الزمن المجنحة تدنو سريعا ··

---

(١) وأدى هذا الى ظهور مجلد اضافه توينبى الى أجزاء « دراسة للتاريخ » ـ والمجلد الأخير يحمل عنوان « اعادة نظر » Reconsiderations وقد ظهر في عام ١٩٦١ .
(المترجم)

الجنس البشرى ، ذلك البغل الذى لايقهر *

لا جدوى من أن يصبح المرء كاتبا ما لم يكن en rapport (1) مع العالم الذى يعيش فيه . ومن الممكن استخدام القلم فى أغراض مختلفة : كأن يستخدم فى تأييد الاتجاهات السائدة ، أو فى معارضتها . ولكن ، اذا أراد الكاتب النجاح فى تحقيق غرضه (أيا كان) فى الفترة التى يعيش فيها ، فلابد أن تصل الكلمة المكتوبة الى عقول معاصريه ، وتمس مشاعرهم . فاذا فشل الكاتب فى ذلك فكأنه قد أودع أصول كتاباته فى احدى الخزائن ، آملا أن يجىء اليوم الذى يظهر فيه جيل يحتفل بكلماته . وفى مقدورنا أن نذكر كتابا تعرضوا لهذا المصير ــ ومن الأمثلة الشهيرة : اخناتون ، وابن خلدون ، وروجر بيكون ، وفيشو ، ومندل. ولكنه مصير محزن، وأسوأ من هذا أن الكاتب يفشل ــ بمقتضاه ــ فى تحقيق رسالته ، انه يفشل فى التأثير على معاصريه فى عصر يتعرض فيه مصير الجنس البشرى نفسه للخطر .

ونحن نشعر أننا نعيش اليوم فى عصر من هذا الطراز . ويجمع على صحة هذه القضية أناس يختلفون حول أى نقاط أخرى تقريبا . وليس من شك فى أن كل جيل يميل الى الاحساس بأن تاريخ البشرية وصل ، فى عصره ، الى منتهاه . هذا السراب واحد من مجموعة كبيرة صنعها اهتمامنا المسرف بذواتنا ، وعلينا أن نبحث فى أمر هذا السراب.

---

* نشر هذا المقال لأول مرة بالملحق الادبى لصحيفة التايمز البريطانية ، وذلك ضمن مجموعة مقالات لعدد من الكتاب ــ تحت عنوان «حدود التحكم» Limits of Control والهدف من هذه المجموعة توضيح موقف الكتاب من ظروف العصر الحديث . ثم نشرت هذه المقالات ، مجموعة ، في شهر يونيه من عام ١٩٦١ تحت عنوان « حيرة الكاتب » The Writer's Dilemma . هذا ، وقد تصدر مقال توينبى هذه المجموعة .

(1) متفاهما (عن الفرنسية) . فضلت الاحتفاظ ، داخل المقال المترجم ، بالالفاظ التى يكتبها توينبى بغير اللغة الانجليزية ، وذلك لصيانة روح النص .

(المترجم)

ونرفضه . ولكن ، بالرغم من التسليم بهذه الحقيقة ، فاننا قد نتفق على أن العصر الحاضر هو على كل حال عصر خطير بصورة غير معتادة ، وأنه - أيضا - عصر تغير سريع غير معتاد . ان كتاب العصر الراهن أخذوا ينتقلون ، خلال حياتهم الواحدة ، من عصر الى عصر آخر يبدو أنه مختلف جدا عن سابقه .

وهناك ، بوجه خاص ، اختراعان يؤثران على المؤلفين لأنهما يؤثران على كل انسان . لقد بدأنا نتعلم كيف نؤثر على الكائنات البشرية نفسيا وجسمانيا ، ولقد استنبطنا بواعث جديدة لكى يؤثر كل منا على الآخر بهذه الطريقة .

ان الاساليب الجديدة الخاصة بتشكيل الناس باتت معـــروفة بصورة منفرة . ففى السوق الآن أساليب سيكلوجية ، و «غسيل للمخ» وعقاقير ، وعلماء الأحياء يتحدثون عن احتمال معالجة البشر لأســاليب الطبيعة فى التناسل . ويبدو محتملا فى هذا الميدان كله ، أننا ما زلنا عند المرحلة الاولى فقط من غزو الانسان لعالم جديد ، وواضــح أن من الممكن استغلال هذه الطاقة الجديدة الهائلة اما للخير أو للشر والبواعث الجديدة التى تدفعنا الى استغلال هذه الطاقة ، واعتبار هذا الاستغلال أمرا سليما ، تنبع كلها من تضخم هائل مفاجىء ، فى حجم المســائل البشرية اذا ما قيست بحجمنا السيكلوجى والمادى ، نحن أفراد الجنس البشرى .

صحيح أننا نجحنا فى مضاعفة حجمنا ، فلنقل بمقدار ربع ذراع . فالعلوم الطبية ضاعفت الطول العادى لحياة بالغة مثمرة فى عملها ، وربما ضاعفت أيضا من كمية الطاقة الذهنية والجسمانية (١) per diem ، وقد بات هذا واضحا فى ثلث الجنس البشرى ، الذى أصبح مزدهرا الآن . وقد نأمل ، ونتوقع ، أن الثلثين اللــذين ما زالا خاملين سيحصلان ، فى النهاية ، على الثمار نفسها من التقدم العلمى . ومع ذلك ، فان هذه الزيادة الحالية فى مقدرة الكائن البشرى الفرد هى زيادة متواضعة فى أقصى صورها ، أما التضخم ، الراهن ، فى مجال الشئون البشرية فأكبر حجما ، وذلك بصورة غير متناسبة . ان ضخامة الشئون البشرية تتضاعف بصورة غير منتظمة فى ثلاثة مجــالات على الأقل . ان عدد سكان العــالم آخذ فى الازدياد . وعدد الأجهزة المخصصة لكل نسمة ، وقدرة هــذه الأجهــزة ، آخذان فى الازدياد أيضا ، كمـــا أن قدرة هذا الجهاز على

(١) اليومية (عن اللاتينية) .

التدمير ـ فى حالة تطبيقه فى الحرب ـ آخذة فى التضاعف كذلك · هذه الزيادات المتفجرة الثلاث ، التى ضاعفت من حجم الشئون البشرية ، تعتبر حوافز قوية تدفعنا الى استخدام قدرتنا الجديدة على تشكيل الكائنات البشرية ·

مثال هذا أن ضخامة عدد السكان تلزمنا بأن نحافظ على استمرار التعامل بمعناه العريض ، أى بتنظيم الروابط التى تربط بين الكائنات البشرية بعضها مع بعض · وفى المجتمع المكتظ بالسكان نجد أن المهام الخاصة بخدمة الناس ورعايتهم فى غدوهم ورواحهم بين مساكنهم وأماكن عملهم تتطلب تنظيما دقيقا سريع الحركة ، أى تتطلب تنظيما دكتاتوريا · ومن الطبيعى أن « رجل المنظمات » (بالمعنى المشــــهور الآن ، والذى يحاول الحط من شأن الرجل الحديث) أسلس قيادا لهذه العمليات التنظيمية من الانسان ذى النزعة الفردية ، الشبيه بالماعز ، أو البغل ، أو الجمل · ان منظمينا فى حاجة الى نوع من النحل البشرى أو النحال البشرية · فاذا كنا نصل الآن الى أسلوب نحول به البغال الى نحال أصبح لدينا دافع قوى لتطبيق هذا الأسلوب الجديد تطبيقا شاملا ·

وحجم الجهاز ، وقدرته ، يتطلبان أيضا تنظيما دقيقــا دكتاتوريا لكى يعمل هذا الجهاز . وهو جهاز خطير ، حتى حين يستغل لأغراض سلمية بناءة . فلقد كان ثمن ادخال الآلات التى تسير بالطاقة فى المصانع والسكك الحديدية والطرق هو تطبيق نظام عسكرى فى الوظائف المدنية وواضح أن ملاحظ الآلة المدرب أحسن تدريب أو قائد السيارة الماهر ، أو محرك الآلة ، أو عامل الاشـــارة ، اقل خطرا على أمن الجمهـــور من صاحب النزوات الذى لايعمل الا بوحى من ارادته وحده . لا مكان فى عصر الآلة لأبطال مثل أخيل الاسكندر الاكبر ، وشارل الثانى عشر (السويد) فضلا على عدم وجود مكان لهم فى عصر الذرة الذى سببته قروح عصر الآلة . ان مديرى المصانع ، ورجال السكك الحديدية ، ورجال شرطـة المرور ، فى حاجة الى أشخاص من طراز الفرق البروسية التى صقلها فريدريك الاكبر · ومن نافـلة القـول أن لدينـــا باعثـا يحفـزنا الى التحكم فى أنفســنا بحيث لا نستخدم الأسـلحة الذرية · والرغبة فى عدم وضع حد لحياة السلالة البشرية ، بما فيها أنفسنا ، تكاد تكون أقوى باعث لدى الكائنات البشرية . وربما كنا أقرب الى الصواب اذا ذكرنا أنفسنا بأننا اذا نجحنا فى تخليص العالم من خطر الحرب الذرية، فان هذا لن يقى العالم من العبث البشرى . لن يقيه لأننا سنظل نعيش

في العصر الذرى ، والطاقة الذرية ـ حتى حين تستغل بصورة سلمية بناءة ـ أشد خطرا من أى مصدر للطاقة الطبيعية طرقه انسان من قبل.

ذلكم ، اذن ، وضعنا الراهن. ان الكائنات البشرية تبدو اليوم قزمة بسبب المجتمع البشرى ، وبسبب نتاج المجتمع العملاق . هذا مايحدث لنا الآن على كل حال . فاذا أردنا « النجاة أولا » صارت لدينا بواعث قوية للتشدد فى وضع هؤلاء الاقزام الجموحين تحت رحمة المجتمع ، وذلك بتشكيلهم . هل يجب علينا أن نتصرف بوحى من هذه البواعث ؟ أو أنه يجب علينا أن نقاومها وبذا نعرض نفوسنا للخطر ؟

ثمة شىء يبدو محتملا : ستنطوى المقاومة على خطورة اذا مارسها الكتاب . ان مهمة الكاتب تتلخص فى اكتشاف الأفكار ، ونشرها . وكل الآراء الجديدة تبدو خطيرة فى نظر معظم الناس ، وبعض الآراء الجديدة خطيرة بالفعل بالرغم من أنها قد تكون (أو لاتكون) مثيرة ومثمرة فى الوقت نفسه. وفى الأزمنة والأمكنة التى شعر فيها الناس بأنهم يعيشون فى عالم خطير تعرض « التفكير الخطير » للنبذ ، والتحريم والاضطهاد . ومن الأمثلة القديمة على هذا : الدول التى أرادت أن تكون عالمية ، والتى أتاحت لبعض المجتمعات مهلة ، وذلك بفرض السلام والنظام بعد أن كان المجتمع قد أوشك أن يدمر نفسه بنفسه بسبب الحروب والثورات المستمرة . ويقال ان مؤسس الدولة العالمية الصينية أحرق كتب المدرسة الفلسفية التى ازدهرت فى « عصر الدول المتحاربة » السابق . ويقال أيضا ان أحد أباطرة الرومان الأول كافأ شخصا اخترع زجاجا لايتهشم بأن سفك دمه وحطم مواصفاته . وزعموا أن الامبراطور اراد بهذه الخطوة ان يقى العالم شر قلاقل اجتماعية جديدة ، وهى القلاقل التى قد تنشب اذا طرد صانعو الزجاج العادى من عملهم ، وانتشرت البطالة نتيجة لذلك . فاذا كان هناك شك فى صحة هاتين القصتين ، فانهما ben trovate (١) ولسنا نشك فى صحة اضطهاد الحكومة الرومانية للمسيحيين الذين رفضوا أن يلقوا بذرة من عطر فى هيكل القيصر . رأت الحكومة أن هذا الرفض من قبيل التعويق المتعمد المستهتر ، لنظام عالمى استتب بعد جهد وكد ، كان الشهداء المسيحيون مثل أخيل أو شارل .

الثانى عشر : فيلة مخادعة . كانوا يضحكون بسلامة المجموع فى

---

(١) تنطويان على مغزى كبير . (عن الايطالية)

سبيل نزوتهم هم . ان مجتمعا يفتقر الى الأمان لا يستطيع احتمال أوراق « الجوكر » هذه ، الموجودة وسط حزمة عادية من أوراق اللعب .

والباعث وراء عملية التشكيل واضح ، بل انه يدعو الى الاحترام ومع ذلك فان رصيد الجنس البشرى الأكبر كائن فى الطاقة الابداعية ، تلك الطاقة التى تتجسد وتفور فى أفراد من الرجال والنساء فاذا عرفنا كيف نطفىء هذه الشرارة المقدسة ، واذا استفدنا من علمنا الجديد الاستفادة الكاملة ، فاننا سنقضى على الحياة الانسانية بالركود ، وربما قضينا عليها بالانتكاص بعد ذلك . وليس من شك فى أن هذا الوضع ليس سيئا سوء ابادة الجنس البشرى ، اذ طالما أن هناك حياة فهناك أمل . وأعتقد أننا قد لانحذق عملية التشكيل الى الحد الذى يتعذرمعه مناهضة أعمال الرجل البوليسى أو مناهضة أعمال الشيطان . ومعذلك فمن الصعب أن نفكر — بعد مسألة الابادة — فى مصير نجره على أنفسنا أسوأ من تحولنا الى نمال البشرية أو نحل بشرى .

ومن حسن الحظ ان الأدلة الموجودة توحى بأن المسألة لن تستدعى اختيار أحد أمرين : اما كل شىء أو لاشىء فالى الآن والحياة تتقدم عن طريق صبغ العمليات بصبغة آلية لكى تتحرر بذلك الطاقات الباقية. وفى الكائن البشرى نجد أن من بين العناصرالتى تحفظ لهبشريته — اى تجعله يفكر ويتخذ قرارات — أن قلبه ورئتيه سيعملون بطريقةآلية — ولو كان مضطرا الى التفكير فى كل ضربة من ضربات قلبه وكل زفرة — ، والى تنفيذ هذه العمليات اراديا ، فلن يتبقى له وقت أو طاقة ينفقها فى اهتمامات أسمى . ان نظام التأقلم الذى يعمل فى ظله قلب شيلى ورئتاه قد يختلف (١) toto caelo عن نظام الحرية الذى تعمل فى ظله مشاعره ،وأفكاره ورغباته ومع ذلك يستطيع هذان النظامان المتعارضان أن يعيشا معا داخل الشخص الواحد ، وهذا مايفعلانه حقا ، وأكثر من هذا أن أفكار الشخص ومشاعره وقدرته على الاختيار لم تكن لتحرر — ولو جزئيا — كما هى متحررة الآن ، لولا أن ضربات قلبه ، وتنفسه ، اعتادت على التردد دون أن يضطر الى الالتفات اليها .

نفهم من هذا ان مواطنى العالم ، بما فيهم الكتاب ، يستطيعون — حتى فى عصرنا الخطير ، عصر الذرة — أن ينعموا بالحرية فى بعض وجوه نشاطهم — وربما تحرروا فى هذه الميادين اكثر من أى وقت مضى — بالرغم من أن وجوها أخرى لنشاطهم قد تنظم بطريقة دقيقة مربكة ،

---

(١) الى حد هائل . (عن اللاتينية) .

وانا على يقين من أن المواطن ، فى مجتمع المستقبل العالمى الذى تسيره الذرة ، سيكون من واجبه الوقوف فى الطوابير فى صبر — وابداء احترام دينى لاشارات المرور الحمراء ، وعليه أن يكون حريصا ودقيقا وعاملا بوحى من ضميره وهو يحرر استمارات رسمية معقدة لا حصر لها . وفى ميادين كهذه سيطلب المسئولون من المواطن أن يكون كالشاة فى اطاعته للنظام ، وسيكون هذا المطلب مشروعا لأن الابادة قد تحل محل الطاعة فى هذه المجالات . بل علينا أن نتوقع أن يقتحم التنظيم الرسمى للحياة ، يقتحم مخابىء دفينة ظللنا نعتبرها حرما مقدسا للحرية الفردية. هل المواطن (أ) أو المواطنة (ب) لائق — من الناحية التناسلية — لانجاب الأطفال ؟ فاذا جاء الرد بالايجاب — فى ذلك الجزء من الاستمارة المحفوظة للاستخدام الرسمى والذى يملأ بطريقة الاختزال — كان السؤال التالى : ما عدد الأطفال الذين يرخص للمستر (أ) ومسز (ب) بانجابهم ؟ قد يبدو هذا القدر من التنظيم الرسمى الحكومى أمرا غير محتمل ، غير أن الأمر قد يقتضيه . والنقاط التى يجب أن نضعها فى الاعتبار هى أنه ستظل هناك مجالات للحرية بالرغم من هذا ، وأنه كلما تعذر علينا أن نظل أحرارا فى ميادين أخرى . فأحرى بنا أن نمارس حريتنا — بقوة وبصورة ابداعية — فى الميادين التى ستظل مفتوحة للابداع الحر .

وفى عالم كهذا ، يبدو أن الكتاب وغيرهم من أصحاب الارواح الابداعية بما فيهم المهندسون والقديسون ، ومصممو الآلات ، والأنبياء، والنحاتون «Und soweiter» (١) سيواجهون قدرا من الفرص ، والمسئوليات ، والمخاطر ، لم يسبق له مثيل واذ تنحسر الحرية عن الاقتصاد والسياسة ، ستتركز فى الدين وفى الفنون . ولا أعتقد أن الحرية ستنطفىء ، مهما بلغ من تقدم علم التشكيل والتأقلم ، ذلك لأنى آومن بأن الانسان بغل لايقهر ، وجمل لايقهر ، وأن خبراء التشكيل قد يحققون أبشع أغراضهم غير أنهم سيفشلون فى تحويل الانسان الى شاة مائة فى المائة أو نملة مائة فى المائة . ولكن يبدو أن الكتاب فى مثل هذا العالم الجديد سيدفعون ثمن الحرية فى صورة حرب دائمة مع اللجان .

---

(١) وهلم جرا . (عن الالمانية) .

وستكون هذه الحرب خطرا على الكتاب ، لان لجان العصر الذرى هذه ستكون صلبة الرأى ، مسيطرة ، تفرض مقاييسها فيما تراه هى صائبا وسليما . وستشعر بأنها حامية حمى الجنس البشرى ضد الخطر الدائم : خطر التدمير الذاتي الجماعى . وجميع اللجان ، فى جميع الازمنة ، أدنى — من الناحية الاخلاقية والفكرية — من المستوى المعتاد للكائنات البشرية المشتركة فيها . وحين نكون أعضاء فى لجان فاننا نغوص الى أعماق لم يكن يحق لنا أن نغوص اليها فى ظل قدراتنا الشخصية . وليس من شك فى أن اللجان شر لابد منه . ومع ذلك ، فهى وكالات منافية للنزعة الانسانية ، ولذا وجب مقاومتها بمقدار . وهذا الواجب الذى يحتم مقاومة استبداد اللجان سيلقى — بصفة خاصة — على عاتق العمال الابداعيين فى عالم العصر الذرى . وهناك حقائق لا يمكن انكارها ، وهى تبرر هذه المقاومة . لم تظهر قط لجنة استطاعت أن تنظم قصيدة ، أو تؤلف «سوناتا» ، أو ترسم صورة ، أو تصمم مبنى أو قنطرة أو سفينة . وحين كانت هذه الاعمال تتم لم تكن تتم على أيدى لجان ، وانما على أيدى كائنات بشرية تتصرف كأفراد ، وتمارس الحرية الفردية التى تعتبر المصدر الوحيد للابداع البشرى .

وفى العصر الذرى سيضطر العامل المبدع الى القتال ذودا عن حريته ، حتى لو كلفه هذا حياته . وسيضطر الى هذا لا لكى يحقق الحرية لنفسه فقط ، وانما لكى يعطى منها جرعات ملهمة لجمهور يبدو أنه قطع فى التشكيل شوطا بعيدا ولا مناص من أن يرى المسئولون ، فى هذا النشاط الموقظ ، ضربا من التخريب . وسيكون من بين مهام العامل المبدع فى العصر القادم أن يقنع السلطات بأنها ستحطم اغراضها الشريفة اذا هى أصرت على تشكيل جميع سكان العالم مائة فى المائة . انها ستقضى على انسانية الطبيعة البشرية وبذا ستضع خاتمة للجنس البشرى تماما مثل المجنون الذى اطلق عنصر الابادة الذرية من عقاله . ومن الممكن أن يفقد الجنس البشرى انسانيته ويظل مجرد جسد .

ولن يكون من السهل كسب السلطات . وسيضطر العامل المبدع الى أن يقنعهم بأنه بالرغم من أن وظيفته تبدو — فى ظاهرها — معادية

لوظيفتهم ، فان احساسه بالمسئولية لايقل صدقا عن احساسهم • وفى العصر الذرى ستتلخص رسالة الكاتب فى أن يهب نفسه لوظيفة ذبابة الخيل • ولكن ، لن يكفى اخلاصه لهذه المهمة ودأبه فيها • ان الكاتب ، من طراز ذبابة الخيل ، سيسحق ، وسيسحق فى الحال اذا هو فشل فى كسب تسامح المسئولين ، ومعنى هذا أنه مضطر — فى علاقاته العامة — الى أن يكون على حذر فى جبهتين • سيكون أمام كاتب العصر الذرى رقباء يجب أن يفكر فيهم ، الى جانب القراء غير الرسميين ، لذا عليه أن يضاعف — على الأقل — من اليقظة والحذر اللذين مارسهما أسلافه • وهذا المطلب كبير ، ولكنى أعتقد أنه سيواجهه • ومن مصلحة الجميع أن يواجهه ، ذلك أن العالم لايحتمل رؤية كتابه وقد طردوا من عملهم •

لقاءات بين المدنيات (١)

– ١ –

أى حدث سينتقيه مؤرخو المستقبل ، بعد قرون عدة ، ويعتبرونه أبرز حدث فى عصرنا ، وذلك عندما يتطلعون الى الوراء ، الى النصف الأول من القرن العشرين ، محاولين التعرف على وجوه نشاطه وتجاربه على ضوء المقياس العادل الذى يكشف عنه البعد الزمنى أحيانا ؟ يخيل الى أنهم لن يختاروا أى حدث من هذه الأحداث السياسية والاقتصادية ذات الطابع المثير أو المأسوى أو المدمر ، والتى تحتل العناوين الرئيسية فى صحفنا ومكان الصدارة فى أذهاننا ٠ لن يختاروا الحروب ، أو الثورات ، أو المذابح ، أو عمليات النفى ، أو المجاعات ، أو التخمة ، أو دورات الكساد أو الانتعاش ، وانما سينتقون حدثا لا نعيه نحن بصورة كاملة ، حدثا من الصعب أن نضع منه خبرا للصفحة الأولى ٠ ان الأشياء التى تنجح فى خلق عناوين رئيسية انما تجتذب انتباهنا لأنها على صفحة مجرى الحياة ، وهى تصرف أنظارنا عن الحركات التى هى أكثر بطئا ، الحركات غير الملموسة ، التى لايمكن تقديرها ، تلك الحركات التى تؤدى دورها تحت السطح ، وتنفذ الى الأعماق ٠ ولكن ، الواقع أن هذه الحركات التى هى أكثر عمقا وبطئا هى التى تصنع التاريخ فى النهاية ، وهى التى تبرز جيدا عند التطلع الى الوراء ، بعد أن تكون الحوادث المثيرة العابرة قد تضاءلت ـ بمضى الوقت ـ الى نسبها الحقيقية ٠

والمنظور الذهنى ، شأنه شأن المنظور البصرى ، لا يتضح بجلاء الا حين يكون المراقب قد وضع بينه وبين الجسم مسافة معينة ٠ مثال هذا أنك عندما تنتقل ، بطريق الجو ، من مدينة سولت ليك Salt Lake

(١) Encounters Between Civilizations . وهو المقال الحادى عشر فى مجموعة المقالات التى ظهرت عام ١٩٤٦ فى مجلد واحد تحت عنوان «المدنية تواجه الامتحان Civilization On Trial » ثم أعيد طبعها عام ١٩٤٩ ، ١٩٥٣ ، ١٩٥٧٠

الى دنفر Denver فان المنظر المقرب جدا للروكيز Rockies ليس أفضل منظر لها · وعندما تكون فوق الجبال بالفعل فانك لاتشاهد سوى حشد من القمم ، والأطراف ، والأخاديد ، والصخور الصلدة ، ولن تنهض الجبال أمامك بنظامها الرائع ، سلسلة وراء سلسلة ، الا عندما تكون قد خلفتها وراءك حينئذ فقط ترى صورة الروكيز نفسها ·

واذ أضع هذه الصورة في ذهنى ، أعتقد أن مؤرخى المستقبل سيستطيعون رؤية عصرنا فى نسب أفضل من النسب التى نستطيع أن نراه عليها الآن · ترى ، ما الذى سيقولونه عنه ؟

أعتقد أن مؤرخى المستقبل سيقولون ان الحدث العظيم الذى شهده القرن العشرون هو : أثر المدنية الغربية فى جميع المجتمعات الحية الاخرى التى كانت موجودة فى عالم القرن العشرين · وسيقولون عن هذا التأثير انه بلغ من قوته وسعة انتشاره أنه قلب حياة كل ضحاياه رأسا على عقب ، وأخرج ما فى باطنها ، وأثر على سلوك ، ونظرة ، ومشاعر ، ومعتقدات الرجال والنساء والاطفال بصورة مباشرة ، ومس فى أرواح البشر أوتارا لا تمسها القوى المادية الخارجية وحدها ، مهما بلغ حظها من الضخامة والبشاعة · وانى أوقن بأن هذا هو ما سيقوله مؤرخون يتطلعون الى عصرنا ولا تفصلهم عنا سوى مساحة زمنية قصيرة ، كأن يكونوا فى عام ٢٠٤٧ ميلادية ·

فما الذى سيقوله مؤرخو عام ٣٠٤٧ ميلادية ؟ لو كنا نعيش فى القرن الماضى ، لكان على أن أعتذر عن هذا الغرور الصارخ الذى يجعلنى أتظاهر بالتكهن بشىء قد يقال أو يحدث فى هذا التاريخ البعيد · كانت الألف ومائة العام فترة زمنية طويلة فى نظر أناس اعتقدوا أن العالم خلق عام ٤٠٠٤ قبل الميلاد · ولكنى لست بحاجة اليوم الى الاعتذار ، فمنذ عصر أجداد آبائنا طرأ على ميزاننا الزمنى انقلاب كبير ، لدرجة أننى اذا حاولت أن أرسم على هذه الصفحات صورة لتاريخ هذا الكوكب منذ ميلاده ، فلن تستطيع العين المجردة أن تلمح فى صورتى تلك الفترة الوجيزة ، فترة الألف ومائة العام ·

لذا قد يقول مؤرخو عام ٣٠٤٧ ميلادية أشياء أطرف من الاشياء التى سيقولها مؤرخو عام ٢٠٤٧ ميلادية ، ذلك لانهم قد يلمون حينئذ بأطراف أكثر لتلك القصة التى يبدو أننا اليوم عند فصولها الاولى · وأعتقد أن مؤرخى عام ٣٠٤٧ ميلادية سيهتمون ــ أكثر ما يهتمون ــ بالمؤثرات المضادة الهائلة التى سيكون الضحايا قد أحدثوها حينئذ فى

حياة المعتدى · ففى عام ٣٠٤٧ ميلادية قد تكون مدنيتنا الغربية ـ كما عرفناها وعرفها أسلافنا الغربيون فى الالف والمائتين أو ثلثمائة العـــام الاخيرة ، منذ خروجها من العصور المظلمة ـ قد تكون تحولت الى صورة غير معهودة تماما ، وذلك بفعـــل مؤثرات مضادة تشع من عوالم أجنبية نحاول نحن اليـــوم اخضاعها لمؤثراتنا ـ ستشع المؤثرات الجديدة من المسيحية الارثوذكسية ، ومن الاســـلام ، ومن الهندوكية ، ومن الشرق الاقصى ·

وبحلول عـــام ٤٠٤٧ ميلادية ، قد يبدو ذلك التمييز ـ الصارخ اليوم ـ بين المدنية الغربية كمعتد والمدنيات الاخرى كضحايا للاعتداء ، قد يبدو ذلك التمييز تافها · فعندما يعقب اشعاع المؤثرات اشعاع مضاد لمؤثرات أخرى ، تبرز تجربة ضخمة متفردة ، تجربة عرفها الجنس البشرى بأكمله : تتلخص هذه التجربة فى أن ميراثك الاجتماعى المحدود يتمزق اربا اربا نتيجة لارتطامه بالمواريث المحدودة للمدنيات الاخرى ، ثم تجد حياة جديدة ـ حياة جديدة مشـــتركة ـ تبرز من الحطام · وسيقول مؤرخو ٤٠٤٧ ميلادية ان أثر المدنية الغربية فى المدنيات المعـــاصرة فى النصف الثانى من الالف الثـــانية للعصر المسيحى ، كان أكبر حدث غير التاريخ فى ذلك العصر ، ذلك لانه كان الخطوة الاولى نحو توحيد الجنس البشرى داخل مجتمع واحد · وقد تبدو وحدة الجنس البشرى ، عـــام ٤٠٤٧ ، شرطا من الشروط اللازم توافرها فى الحياة الانسانية ـ مجرد جزء من نظام الطبيعة ـ وقد يقتضى الأمر أن يجهدوا خيالهم لكى يتصوروا النظرة الاقليمية المحدودة لرواد المدنية خلال ستة آلاف العام الاولى من وجود هذه المدنية · كانت عاصمة الاثينيين لا تبعد عن أقصى حدود بلدهم أكثر من مسيرة يـــوم ، وكان معاصروهم الامريكيون ـ أو معـــاصروهم الحقيقيون ـ يعيشون فى بلد تستطيع أن تعبره بالطـائرة من بحر الى بحر فى مدى ست عشرة ساعة ، ولكن كيف استطاعوا أن يتصرفوا ! (وقد فعلوا ذلك) وكأن بلدهم الصغير هو الكون ؟

فماذا عن مؤرخى عام ٥٠٤٧ ميلادية ؟ يخيل الى أن مؤرخى عـــام ٥٠٤٧ سيقولون ان أهمية هذا التوحيد الاجتماعى للجنس البشرى لم تكن تكمن فى ميدان الاساليب الصناعية والاقتصاد ، ولا فى مجـــال الحرب والسياسة ، وانما فى مجال الدين ·

- ٢ -

لماذا أغامر بهذه التكهنات الخاصة بالصورة التى سيبدو فيها تاريخ عصرنا ، فى نظر أناس يتطلعون اليه بعد مضى آلاف الاعوام ؟ لان لدينا حوالى ستة آلاف سنة من التاريخ نستطيع أن نحكم على ضوئها ، ستة آلاف سـنة منذ أن ظهرت – لأول مرة – أنواع المجتمعات البشرية التى نسميها « مدنيات » ٠

ان ستة آلاف سنة تكاد تكون فترة وجيزة للغاية اذ ما قورنت بعمر الجنس البشرى ، بعمر الثدييات ، بعمر الحياة على الارض ، بعمر نظام الكواكب الدائرة حول الشمس ، والشمس نفسها ، وحشد النجوم التى لا تعتبر شمسنا عضوا بارزا فيها ، ومع ذلك ، فبالرغم من قصر ستة آلاف السنة الاخيرة ، فانها تقدم لنا أمثلة للظاهرة التى ندرسها الآن – أمثلة على لقاءات تمت بين مدنيات مختلفة ٠ وفيما يتعلق ببعض هـذه الحالات ، نجد أننا نتمتع اليوم بذلك الامتيـاز الذى سيتمتع به مؤرخو عام ٣٠٤٧ أو عام ٤٠٤٧ ميلادية عندما يتطلعون الى عصرنا – ونقصد أننا نعرف قصة هذه الحالات كاملة ٠ لقد كان بعض هذه اللقاءات الماضية فى ذهنى وأنا أتكهن بالنتيجة التى سيسفر عنها لقاؤنا بمعاصرينا ٠

خذ تاريخ احدى المدنيات السالفة ، المدنية الاغريقية – الرومانية ، وانظر كيف تبدو لنا هذه المدنية داخل المنظور البعيد الذى نستطيع أن نراها فيه اليوم :

كان من نتيجة فتـوحات الاسكندر الاكبر والرومان ، أن أرسلت المدنية الاغريقية الرومانية أشعتها عبر معظم أجزاء العالم القديم – وتغلغلت هذه الأشعة الى الهنـد ، والى الجزر البريطانية ، بل وصلت الى الصين ودول اسكندناوه ٠ أما المدنيات الوحيدة التى ظلت فى ذلك الحين بمنأى عن هذا التأثير فهى مدنيـات أمريكا الوسطى وبيرو ، وهكذا نرى أن التوسع الذىأحرزته المدنية الاغريقية الرومانية يمكن أن يقارن بمدنيتنا، من حيث مداها وقوتها ٠ وعنـدما نتطلع الى الوراء ، الى تاريخ العـالم الاغريقى الرومانى خلال القرون الاربعة الاخيرة قبل الميلاد ، لا تبرز أمامنا سوى هـذه الحركة الضخمة من التوسع والتغلغـل ٠ أما الحروب ، والثورات ، والازمات الاقتصادية ، التى عبثت بسطح التـاريخ الاغريقى الرومانى خـلال تلك القرون واحتلت الشطر الاكبر من تفكير الرجال والنساء الذين كانوا يجاهدون لكى يعيشوا وسط هذه الاحداث ، فلاتعنى لنا الشىء الكثير بالقياس الى هذه الموجة الهـائلة من النفوذ الحضارى.

للاغريق ، والتى اكتسحت آسيا الصغرى ، وسورية ، ومصر ، وبابل ، وبلاد الفرس ، والهند ، والصين .

ولكن ، لماذا نهتم اليوم بأثر الاغريق والرومان فى هذه المدنيات الاخرى ؟ ان سبب اهتمامنا ظهور هجوم مضاد لهذه المدنيات الاخرى ، موجه نحو العالم الاغريقى الرومانى .

ولقد تم شن جزء من هذا الهجوم المضاد بالاسلوب الذى تم به الهجوم الاغريقى الرومانى الاول : أى بقوة السلاح . غير اننا لا نكترث اليوم كثيرا بذلك الامل اليهودى ، اليائس ، الرامى الى مقاومة الاستعمار الاغريقى والرومانى فى فلسطين بقوة السلاح ، ولا نكترث بنجاح ذلك الهجوم المضاد الذى شنه البارينون وخلفاؤهم من الفرس فى ظل الاسرة الساسانية شرقى الفرات ، ولا نهتم بالانتصارات المثيرة التى أحرزها العرب المسلمون الاول الذين حرروا الشرق الاوسط - فى القرن السابع للعصر المسيحى - من الحكم الاغريقى الرومانى فى أعوام قصار قصر الاعوام التى هزم خلالها الاسكندر الاكبر هذه المنطقة منذ ألف عام .

ولكن ، كان هناك هجوم مضاد آخر ، هجوم سلمى ، روحى . هذا الهجوم لم يضرب ويغزو القلاع والمقاطعات وانما القلوب والعقول . وتم هذا الهجوم على يد المبشرين بالديانات الجديدة التى ظهرت فى العوالم التى غزتها المدنية الاغريقية الرومانية بالقوة واكتسحتها . وكان القديس بطرس أمير هذه الارساليات ، وكانت نقطة انطلاقة أنتيوخ ، ومنها مضى فى زحفه الجرىء الى مقدونيا ، واليونان ، وروما ، والتى عجز الملك انتيوخوس يوما فى الوصول اليها . وكانت هذه الديانات تختلف فى طابعها عن الديانة المحلية للعالم الاغريقى الرومانى . كان لآلهة الوثنية الاغريقية الرومانية جذور ضاربة فى مجتمعاتهم الخاصة ، كانوا أصحاب طابع محلى وسياسى : أثين بولياس ، فورتونا برانيستينا ، ديا روما . أما آلهة الديانات الجديدة التى شرعت فى هذا الهجوم السلمى المضاد الموجه الى قلوب الاغريق والرومان ، وعقولهم ، فارتفعوا عن مستوى نشأتهم المحلية الاولى . لقد أصبحوا آلهة عالميين ، يحملون رسالة الخلاص للجنس البشرى كافة ، لليهود وغير اليهود ، للأسقوفيين والاغريق . أو، لنتكلم عن هذا الحدث التاريخى الكبير بأسلوب الدين ، فنقول ان الرب الواحد الحق انتهز هذه الفرصة التى تفتحت فيها عقول الناس بفعل الارتطام والانهيار اللذين تعرضت لهما مدنياتهم المحلية القديمة ، لقد استغل هذه التجربة المؤلمة لكى يضىء هذه الاذهان ، المتفتحة مؤقتا ،

بصورة لطبيعته وغايته ، صورة أكمل وأصدق من أى صورة استطاعوا استقبالها من قبل ٠

خذ كلمتى « يسوع المسيح » Jesus Christ ان لهـــاتين الكلمتين أهمية كبرى بالنسبة لنــــا ، وقد نغامر ونتكهن بأن أهميتهما للجنس البشرى ستظل لألفى أو ثلاثة آلاف ســـنة مقبلة ٠ ان هاتين الـــكلمتين تشهدان على ذلك اللقاء بين مدنية اغريقية رومانية ومدنية سورية ، وأنجب اللقاء الديانة المسيحية ٠ ان Jesus هو ضمير الغائب المفرد لفعل سامى ٠ أما Christ فهى الـ passive participle لفعـــل يونانى ٠ والاســـم المؤلف من الكلمتين يشهد بأن المسيحية ولدت فى هذا العالم نتيجة لقران بين هاتين الحضـارتين .

ولتفكر فى الديانات الكبرى الاربع ، ذات الرسالة العالمية ، الموجودة فى عالم اليوم : المسيحية والاســـلام ، والهندوكية ، وذلك الشكل من أشكال البوذية المعروف بالماهايانا والســـائد فى الشرق الاقصى ٠ ان الديانات الاربع كلها ، من الناحية التاريخية ، نتاج لقـــاء بين المدنية الاغريقية الرومانية والمدنيات الاخرى المعاصرة لها ٠ لقد ظهرت المسيحية والاسلام كرد ، للعالم السورى ، على التغلغل الاغريقى الرومانى : وجاءت المسيحية فى صورة رد غير عنيف ، وجاء الاسلام فى صورة رد عنيف ٠ وجاءت البوذية الماهايانية ردا رقيقا من جانب العالم الهندوكى على التحدى الاغريقى الرومانى نفسه ، فى حين جاءت الهندوكية فى صورة رد عنيف ٠

واذ نتطلع اليوم الى التاريخ الاغريقى الرومانى ، بعد مضى حوالى ألف ثلثمائة عام على انقراض المدنية الاغريقيـــة الرومانية ، نستطيع أن نرى ، داخل هذا المنظور، ان أهم حدث فى تاريخالعالم الاغريقى الرومانى هو التقاؤه بمدنيات أخرى ، ولا ترجع أهمية هذه اللقـــاءات الى نتائجها السياسية والاقتصادية المباشرة ، وانما الى نتائجها الدينية البعيدة الأمد ٠ ان هذا المثـــال الاغريقى الرومانى ـ الذى نعرف قصته كاملة ـ يعطينا أيضا فكرة عن الفترة الزمنية التى تستغرقها اللقـــاءات بين المدنيات ٠ لقد بدأ تأثير العالم الاغريقى الرومانى على المدنيات المعـــاصرة ـ والذى يماثل تأثير العالم الغربى الحديث فى معاصريه منذ مطلع القرنين الخامس عشر والسادس عشر ـ بدأ هذا التأثير مع فتوحات الاسكندر الاكبر فى القرن الرابع قبل الميـــلاد ، وكان عالم الشرق الاوسط لا يزال يترجم المؤلفات الكلاسيكية فى الفلسفة والعلوم اليونانية بعـــد مضى خمسة أو ستة قرون على تحرير الشرق الأوسط من الحكم الاغريقى الرومانى على يد العرب المسلمين الأول فى القرن السابع للعصر المسيحى ٠ ومنذ القرن

الرابع قبل الميلاد حتى القرن الثالث عشر فى العصر المسيحى اقتضى استكمال اللقاء بين المدنية الاغريقية الرومانية ، والمدنيات المعاصرة ، اقتضى مرور أكبر شطر من ألف وستمائة عام ٠

والآن ، وعلى ضوء هذه الالف وستمائة العام ، فى الفترة التى أمضاها اللقاء بين مدنيتنا الغربية الحديثة والمدنيات المعاصرة لها ٠ نستطيع أن نقول ان هذا اللقاء بدأ مع هجوم العثمانيين على أوطان المدنية الغربية ، كما بدأ مع رحلات الكشوف الكبرى التى قام بها الغرب عند مطلع القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر من عهدنا ٠ ولايؤلف هذا سوى أربعة قرون ونصف قرن الى الوقت الحالى ٠

فلنفترض ، اذا شئت أن قلوب الناس وعقولهم تتحرك اليوم بأسرع مما كانت تتحرك بالامس (بالرغم من أننى لا أعرف دليلا يثبت أن الجزء اللاشعورى من الانسان نفسه يغير من سرعته بشكل ملحوظ) ــ حتى لو سلمنا بهذا ، بدا لنا وكأننا مازلنا فى فصل مبكر من فصول قصة لقائنا بمدنيات المكسيك وبيرو والمسيحية الاورثوذكسية والاسلام والعالم الهندوكى والشرق الاقصى ٠ ولم نشرع الا الآن فى رؤية بعض النتائج التى سببها تأثيرنا فيهم ، غير أننا لم نبدأ تماما فى رؤية نتائج اجراءاتهم المضادة القادمة ، وفعلها فينا ، وهى اجراءات ستكون هائلة لا محالة ٠

وفى جيلنا فقط رأينا مظهرا من المظاهر الاولى لهذا الهجوم المضاد ، ولقد وجدناه مزعجا للغاية ، وسواء أحببنا ذلك أو كرهناه ، فاننا قد شعرنا بخطورته ، وأقصد بالطبع تلك الحركة التى أحدثها ذلك الفرع من فروع المسيحية الاورثوذكسية النابت فى روسيا ٠ انها حركة خطيرة مقلقة ، ولا يرجع هذا الى القوة المادية الكامنة وراءها ٠ فالروس ، على كل حال ، لم يحصلوا بعد على القنبلة الذرية (١) ، غير أنهم قد أبدوا بالفعل (وهذه هى النقطة الهامة) قدرة على تحويل الارواح الغربية الى « أيديولوجية » غير غربية ٠

لقد التقط الروس فلسفة اجتماعية دنيوية غربية : الماركسية ، ولن تخطىء حين تقول ان الماركسية هرطقة مسيحية ، وورقة منزوعة من كتاب المسيحية ــ عوملت وكأنها الانجيل كله ٠ التقط الروس هذه الديانة الضالة ، وأحالوها الى شىء من صنع أيديهم ، وهم يسددونها اليوم نحونا ٠ هذه هى أول طلقة فى الهجوم المضاد الموجه ضد الغرب ، غير أن

---

(١) كتب توينبى هذا المقال عام ١٩٤٦ ٠

(المترجم)

هذا الهجوم الروسي المضاد ـ الذى جاء فى شكل الشيوعية ـ قد يبدو أمرا هينا عندما ترد مدنيات الهند والصين ـ الاكثر خصبا فيما يبدو ـ ترد بدورها على تحدينا الغربى • ويحتمل ، فى نهاية الامر ، أن تحدث الهند والصين فى حياتنا الغربية مؤثرات أعمق بكثير من المؤثرات التى يمكن أن تحلم روسيا باحداثها مستعينة بشيوعيتها • بل ان مدنية المكسيك ، المحلية الضعيفة نسبيا ، بدأت ترد أيضا • ان الثورة التى أخذت المكسيك تمر بها منذ عام ١٩١٠ ميلادية قد تفسر على أنها خطوة أولى للاطاحة بالرداء العلوى للمدنية الغربية ، تلك المدنية التى فرضناها على المكسيك فى القرن السادس عشر • وما يحدث اليوم فى المكسيك قد يحدث غدا فى مهود مدنية أمريكا اللاتينية المحلية : فى بيرو ، وبوليفيا ، والاكوادور ، وكولومبيا •

- ٣ -

وقبل أن أترك الموضوع يجب أن أعلق على سؤال تفاديته حتى هذه المرحلة ، هذا السؤال هو : ماذا نعنى بكلمة « مدنية » ؟ واضح اننا نعنى بها شيئا ، ذلك لاننا حتى قبل أن نحاول تحديد مقصدنا نجد أن تصنيف المجتمعات الانسانية ـ المدنية الغربية ، الاسلامية ، ومدنية الشرق الاقصى ، والهندوكية وهلم جرا ـ يبدو شيئا معقولا ان هذه الاسماء ترسم فى أذهاننا صورا محدودة للدين ، والعمارة ، والتصوير ، والسلوك ، والعادات • ولكن ، من الافضل أن نحاول الاقتراب من المعنى الذى نقصده من اصطلاح قتلناه الآن بحثا • وأعتقد أننى أعرف ما الذى أعنيه بكلمة مدنية : اننى متيقن ، على الاقل ، من أنى أعرف كيف وصلت الى رأيى الخاص فيها •

اننى أقصد بالمدنية أصغر وحدة للدراسة التاريخية يصل اليها المرء حين يحاول فهم تاريخ بلده : ليكن الولايات المتحدة الامريكية أو المملكة المتحدة • ولو حاولت فهم تاريخ الولايات المتحدة فى حد ذاته لبدا لك غير مفهوم : لن تستطيع أن تفهم الدور الذى لعبه الحكم الفدرالى ، والحكم النيابى ، والديمقراطية ، والتصنيع ، والزواج بواحدة فقط ، والمسيحية ، لن تفهم الدور الذى لعبته هذه الاشياء فى الحياة الامريكية ما لم تتطلع الى ماوراء حدود الولايات المتحدة ـ الى أوربا الغربية والى الاقطار الاخرى التى أنشأها الاوربيون الغربيون فيما وراء البحار ، وما لم تذهب الى ما وراء نشأتها المحلية ، الى تاريخ أوروبا الغربية فى القرون الغابرة ،

قبل أن يعبر كولومبوس أو كابوت المحيط . ولكنك حين تريد فهم التاريخ الامريكي والانظمة الامريكية لأغراض عملية لا تحتاج الى تخطى أوربا الغربية والتطلع الى أوربا الشرقية أو العالم الاسلامى ، ولست بحاجة الى الذهاب الى ماوراء نشأة مدنيتنا في أوربا الغربية ، الى تدهور المدنية الاغريقية الرومانية وسقوطها . ان هذه الحدود الزمانية والمكانية تعطينا وحدة مفهومة للحياة الاجتماعية ، وحدة تعتبر الولايات المتحدة أو بريطانيا العظمى أو فرنسا أو هولندا جزءا منها : سمها المسيحية الغربية ، المدنية الغربية ، المجتمع الغربي ، العالم الغربى . وبالمثل ، اذا بدأت باليونان أو الصرب أو روسيا وحاولت فهم تاريخها ، فانك تصل الى مسيحية أورثوذكسية أو عالم بيزنطى . واذا بدأت بمراكش أو أفغانستان وحاولت فهم تاريخهما ، فانك تصل الى عالم مسلم . ولتبدأ بالبنغال أو ميسور أو راجبوتانا ، فستجد عالما هندوكيا . وابدأ بالصين أو اليابان وستجد عالم الشرق الاقصى .

وبالرغم من أن الدولة ، التى يتصادف أن نكون من رعاياها ، تطالب بولائنا بصورة استبدادية ملموسة ، وبخاصة فى العصر الحديث ، الا أن المدنية التى نحظى بعضويتها تؤثر في حياتنا أكثر مما تؤثر الدولة . وفى أغلب مراحل التاريخ نجد أن هذه المدنية التى نحن أعضاء فيها تحتضن مواطنى دول أخرى الى جانبنا . ان هذه المدنية أقدم من دولتنا : ان عمر المدنية الغربية يقرب من ألف وثلثمائة عام ، أما عمر مملكة انجلترا فلا يتعدى ألف عام ، في حين نجد أن عمر المملكة المتحدة لانجلترا وأسكتلندا أقل من مائتى وخمسين عاما ، ولا يزيد عمر الولايات المتحدة كثيرا عن مائة وخمسين عاما . والدول عرضة لحياة قصيرة وموت فجائى : أما المدنية الغربية التى قد تشترك ، أنت وأنا ، فى عضويتها ، فقد تعيش لقرون بعد أن تكون المملكة المتحدة والولايات المتحدة قد اختفتا من خريطة العالم مثلما اختفى المعاصران الراحلان : جمهورية البندقية ، والملكية المزدوجة للنمسا والمجر . هذا واحد من الأسباب التى جعلتنى أطالب بأن ننظر الى التاريخ على ضوء المدنيات ، لا الدول ، وأن تعتبر الدول أشبه بظواهر سياسية تابعة ، ومؤقتة ، في حياة المدنيات ، المدنيات التى تظهر الدول وتختفى في أحضانها .

خاتمة رحلة (١)

عندما قفلنا راجعين من بيبلوس الى بيروت ، مساء أمس ، رأينا الشمس وهى تغرق فى البحر الابيض المتوسط مرة أخرى . كان من الممكن ألا يختلف هذا اليوم عن أى يوم آخر فى رحلتنا . فلقد بدا لنا أننا مازلنا بعيدين عن انجلترا بعدنا عنها ونحن فى اندونيسيا أو اليابان. ولكن ، ها نحن فى هذا الصباح قد عدنا الى منزلنا فى لندن . وفى مطار لندن ، منذ ساعة مضت ، أطلت خمسة وجوه صغيرة باسمة من باب مبنى الجمرك ، وأخذت تنتظرنا حتى ننتهى من اجراءات أمتعتنا ، وقبل ذلك بساعتين ، عندما أطلت علينا الشمس من جديد بعد أن أتمت احدى رحلات العودة الضخمة من الغرب الى الشرق ، أخذت تسطع فوق قمم الألب المغطاة بالجليد ، على حين كان ماترهورن يغيب وراء كتفى الأيسر .

ونحن لا نكاد نصدق أننا طفنا بالكرة الارضية « طبقا للخطة الموضوعة » . فقبل البدء فى الرحلة ـ مضى على ذلك الآن أكثر من سبعة عشر شهرا ـ انهمكنا لعام ونصف عام على الاقل فى تخطيط رحلتنا ، وبدت تقديراتنا ومراسلاتنا أقرب الى دراسات أكاديمية داخل جامعة منها الى استعدادات حقيقية لرحلة ستتم بالفعل . هل سأجد نفسى حقا ، يوم السبت الثامن والعشرين من ابريل عام ١٩٥٦ ، وقد صعدت الى ظهر س. س. رانجيتاتا وهى تشق مياه قناة بناما ؟ وهل ستستقر زوجتى بالفعل

✻ فى عام ١٩٥٨ نشرت مطبعة جامعة أكسفورد كتاب « من الشرق الى الغرب ... رحلة حول العالم » East to West. A Journey Round the World. للمؤرخ أرنولد توينبى . وفيه يتحدث عن الرحلة الطويلة التى قام بها هو وزوجته حول العالم ، والتى استغرقت أكثر من ١٧ شهرا . وأتيح له خلالها أن يطوف بآسيا . غير أن الظروف حالت دون زيارته للقارة الافريقية . و «خاتمة رحلة » هو الفصل الذى ينهى به توينبى كتابه .

فى القمرة التى حجزناها ؟ وفى يوم الاحد ، التاسع عشر من شهر مايو عام ١٩٥٧ ، فى الساعة الرابعة مساء ، هل سأهبط حقا فى أشور من قطار بغداد ــ الموصل المسائى ؟ وقبل أن نبدأ الرحلة بدا هذا غير محتمل الوقوع . وهكذا بدأنا الرحلة وقلوبنا فى حلوقنا . وكان لابد أن ننجح فى تنفيذ جزء كبير من البرنامج الطويل قبل أن نشعر بأية ثقة فى نجاح الجزء الباقى . ولقد كانت هناك ، بالطبع ، خسائر ومكاسب . لقــد خسرت بوليفيا لاننى مرضت ، ولكننى كسبت العربية السعودية وقطاع غزة بفضل دعوات كريمة لم نكن نتوقعها . وعند الموازنة ، نجــد أن المكاسب فاقت الخسائر ، وهو شىء لم نكن نتوقعه الى حد كبير .

وعنـــدما يشرع امرؤ فى وضع خطة لرحلة تستغرق سبعة عشر شهرا ، يتصور سلفا أن هذا سيتيح له وقتا كافيا لرؤية العالم بأكمله ، ورؤيته فى أناة وتمهل . فاذا دخل فى التفاصيل اكتشف أنه قد يأمل فى رؤية شطر ضئيل من سطح الارض اذا هو استغل كل ســـاعة وكل دقيقة . ان ســـطح الكرة الارضية لا حدود له ، ومهمـــا تغلغل فى أحد الاتجاهات فسيكون هناك دائما هدف مثير قريب منه جدا ولكنه لايستطيع أن يلمسه . فكر فى اضطرارك الى العودة الى بوماتا مرة أخرى على حين ترقد هناك ، عبر حدود بيرو ــ بوليفيا ــ بعيدا عن مرمى البصر فقط ــ مدينة تياهواناكو : المدينة التى ألقت بالحجر الضخم المجلجل فى البركة الهادئة لمدينة بيرو الاولى .. وفكر فى وقفتك عند ممر كوهات ، محملقا ناحية الجنوب الشرقى تجاه وزيرستان دون أن يتاح لك الوقت لتخطى الحدود الشمالية الغربية من هنا الى كويتا . وخلال الرحلة يتعذب المسافر دائما من جراء شعوره بأن هناك أماكن كثيرة لم يرها . وفى نهاية الرحلة يكتشف أنه عاد الى بيته ومعه شحنة ضخمة من المعارف الجديدة . وهكذا مر سبعة عشر شهرا وأقدامنا لم تطأ أرض افريقية أو أرض جزيرة واحدة من جزر البولينيز ، وشاهدنا ــ ولكننا لم ندخل ــ الصين ، وأفغانستان ، والاتحاد السوفييتى . (رأينا الصين من الحدود الجديدة لهونج كونج ، وأفغانستان من الطرف الغربى لممر خيبر ، والاتحاد السوفييتى من الطرف الشمالى الغربى لاقليم جيلان الفارسى المخضوضر) . وقد يبدو من هذا إننا أضعنا وقتنا عبثا . ولكننا كنا نهرول ، من البداية حتى النهاية ، كما أننا سعينا الى رؤية عدد من البلدان الكثيرة التى تكتظ بها آسيا .

ويتخيل الى أن معظم المسافرين يسافرون ليصلوا الى مكان ما، وهؤلاء هم الذين تسهر على راحتهم أجهزة النقل . أما اذا كان المرء ينتمى الى القلة التى تسافر لكى ترى ما فى طريقهـا فان عليه أن يواجه عدوين لدودين : العاصمة والطائرة .

« وكلما كان جهاز الطحن أفضل ، قلت المواد الغذائية فى الريف ، وكلمـا كانت وسيلة النقل أفضل ، قلت الاستفادة من الرحلة » . ان الاجهزة الامريكية ذات الطاقة العـالمية تطرد الفيتامينات من الدقيق . والطائرات البريطانية ذات الطاقة العالية تنقل المسافر فوق السحاب الى ارتفاع يمنعه من رؤية البلدان التى يمرق فوقها . ان أفضل وسيلة لنقل المسافر الذى يريد أن يرى العالم هو أن يسير على قدميه .

أما بالنسبة لعواصم العالم فانها، كلها ، تزداد ضخامة ، وتشابها، ومغناطيسية . انها تجذبك الى بيتها ، بيت العنكبوت وتتآمر معها جميع وسائل النقل ، وما ان تقتنصك حتى ترفض اخلاء سبيلك . انها لاتستطيع أن تتصور أنك تريد أن تهرب منها حقا الى الريف . ولكن الريف ، حتى فى يومنا هذا ، مازال هو العالم الحقيقى . ان العاصمة لا تمثل البلد فى قليل أو كثير . ولقد ولدت فى لندن ، وعشت فى لندن طيلة حياتى . ولكنى اذا أردت أن أعد دراسة جادة عن موطنى فسأهرب من لندن وأذيب نفسى فى هدرز فيلد وورينجتون . ان عجز العاصمة عن تمثيل وطنهـا لأحد عيوبها النوعية ، غير أن هـذا العجز يصل الى الذروة فى هـذه البلدان — وهى تمثل الغالبية — التى تمر اليوم بمرحلة التمدين . ذلك لان التمدين يبدأ فى المدن ، وهو يشـكل حيـاة الحضر وفقا للانماط الغربية ، وهكذا نجد أن الهوة بين العاصمة والريف — فى أمريكا اللاتينية والبلدان الآسيوية — هائلة جدا ، كما أنها آخذة فى الاتساع المنتظم . مثال هذا أنك تشعر ، وأنت تدخل طهران ، وكأنك قـد خلفت وراءك ايران — التى تعتبر طهران عاصمتها الرسمية . ولو قد وضع جنى عابث مدينة طهران موضع ليما ، ووضع ليما موضع طهران فى ليلة واحدة ، فان الفلاحين الايرانيين وفلاحى كويشوا سيجيئون الى السوق فى صباح اليوم التالى كالمعتاد ، ومن المحتمل أنهم لن يكتشفوا حدوث أدنى تغير . فليس أغرب من وجود ليما داخل وطنها ، وليس أغرب من وجود طهران

داخل ايران • والاثنتان متشابهتان تشابه حبتي بسلة • واذا كان هدف المسافر هو رؤية عواصم العالم ذات الطابع الموحد ، فأحرى به أن يجنب نفسه عناء حزم حقيبة • وأينما كان المرء ، فـــلا بد من أن يصطدم بهذا النتاج الذى صنعه عصرنا الحديث •

لقد ضاع الكثير ـ الكثير جدا من شهورى الثمينة السبعة عشر فى الذبول داخل العواصم • وضاع الكثير منها فى الاندفاع داخل الطائرات• غير أنى لم أفقد تماما تلك المعركة التى خضتها مع هذين العدوين اللذين يترصدان المسافر : العاصمة والطائرة • لقد مررت فوق ذؤابات أشجار غابة الأمازون ، مستقلا طائرة برمائية ، وارتقيت أحد وديان ايران الخفية ممتطيا ظهر حمار ، وتسللت فى طريق سايك عند بترا سيرا على الاقدام • ان هذه اللمحات للعالم الحقيقى شذرات لا تقـــدر بثمن • والآن ، وقد حصدت هذه الشذرات ، يجب أن أبذل قصارى جهدى لأتحدث عنها •

من مؤلفات توينبي

- Nationality and War. (1915).
- The New Europe. (1915).
- The Western Question in Greece and Turkey. (1922).
- Greek Historical Thought. (1924).
- Greek Civilization and Character. (1924).
- The World After the Peace Conference. (1925).
- Nations of the Modern World. Turkey. With K. P. Kirkwood. (1926).
- A Study of History. The First Three Volumes. (1934).
- A Study of History. Three Other Volumes. (1939).
- Christianity and Civilization. (1940).
- Civilization on Trial. (1946).
- East to West. A Journey Round the World. (1956-1957).
- A Slady of History. Reconsiderations. (1961).

فهرس

الموضوع	الصفحة
تقـــديم الترجمة	٣
الانسان .. والجيلى المجرم	١٥
قطاع غــزه	١٩
مع أرنولد توينبى	٢٣
الجنس البشرى ، ذلك البغل الذى لا يقهر ..	٣٧
لقاءات بين المدنيات	٤٥
خاتمة رحلة	٥٥
من مؤلفات توينبى	٥٩

هيئة قناة السويس

مناقصة عامة

تطرح هيئة قناة السويس ـ فى مناقصة عامة بين مقاولى القطاع العام والخاص ـ عملية انشاء مركز طبى بورتوفيق . ويمكن الحصول على مستندات المناقصة بالحضور شخصيا بمقر الهيئة بالاسماعيلية (قسم المشروعات) نظير مبلغ عشرة جنيهات . وتقدم العطاءات داخل مظروفين مغلقين بالشمع الأحمر ، ويكتب العنوان الخارجى باسم السيد رئيس هيئة قناة السويس ـ الادارة الهندسية (قسم المشروعات) فى ميعاد أقصاه الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم ٢٣ من يونية سنة ١٩٦٤ ويجب أن تكون العطاءات مصحوبة بتأمين ابتدائى قدره ١٠٠٠ جنيه ولن يلتفت الى العطاءات التى ترد بعد الموعد المحدد أو الغير مصحوبة بالتأمين الابتدائى .